مُراعاةُ الأحوالِ النَّفسيَّة
مِنَ الأحاديثِ النَّبويَّة

دراسة موضوعية

تأليف الدكتور

عبدالله بن عبده بن علي الكريري الشريفي

المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة

تقديم فضيلة الشيخ

أ. د فريد بن اسماعيل التوني

١٤٤٣هـ

ⓒ عبد الله بن عبده بن علي شريفي ، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شريفي ، عبدالله عبده علي
مراعاة الأحوال النفسية في بعض أحاديث السيرة النبوية. /
عبدالله عبده علي شريفي - ط١. .- مكة المكرمة ، ١٤٤٣هـ
٢٢١ ص ؛ ..سم

ردمك: ٠-١٨٣٥-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية - علم نفس ٢- الحديث الصحيح أ.العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٤٣/١٢٨٩٢

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٢٨٩٢
ردمك: ٠-١٨٣٥-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الشكر والتقدير

إن من تمام عبادة الله ﷻ أن يشكرَ العبدُ ربَّه على نَعمائه وآلائهِ الحِسان، فأحمدُ الله ﷻ على نِعمه التي لا تعدُّ ولا تُحصى، قال الباري ﷻ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]، وقول ربِّي ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١٨].

وإن مِن شُكر الله ﷻ: شكرَ أهل الفضل والخير والإحسان؛ وذلك لقوله ﷺ: «**لا يَشْكُرُ الله مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ**»[(١)]؛ لذا فإني بعد شكر الله ﷻ، أشكرُ والديَّ الحَبيبين وزوجتي الغالية؛ حيث كانوا سندًا لي في مسيرتي العلمية.

كما أشكرُ مشايخي الكِرام الذين أكرموني بالإجابة على استفساراتي وأخصُّ منهم فضيلةَ شيخي الشيخ الدكتور/ منصور بن سعد الصبحي، وأخي

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي، حديث رقم (٢٦١٣) (٤/ ٢٣٢)، وأحمد، حديث رقم (٧٩٢٦) (٨/ ٦١)، والبخاري في «الأدب المفرد»، باب «من لا يشكر الناس»، حديث رقم (٢١٨) (١/ ٨٥)، وأبو داود، باب «في شكر المعروف»، حديث رقم (٤٨١١) (٥/ ٢٨٠)، والترمذي، باب «ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك»، حديث رقم (١٩٥٤) (٣/ ٤٠٣)، وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن حبان، باب «ما يجب على المرء من الشكر لأخيه»، حديث رقم (٣٤٠٧) (٨/ ١٩٨)، والحديث صحيح.

الغالي/ إسماعيل بن محمد بن هاشم حيث كان له الفضل -بعد الله ﷻ- في التنسيق والتعديل، وكلَّ مَن أفادني، وساهَم في إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة وأخصُّ منهم فضيلةَ الشيخ الأستاذ الدكتور/ فريد بن إسماعيل التوني حيث إنه لم يألو جهدًا في متابعتي وتوجيهي، فجزاه الله خير الجزاء، وجعل ما قدَّمه في ميزان حسناته، والحمد والشكر لله أولًا وآخرًا.

تقريظ

إن الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فقد سعدتُ بهذا السفر البديع تدبُّرًا، وعشتُ بين أزهاره العَبقةِ قراءةً لأكثر من ثلاث مرات، حيث كنتُ مشرفًا على كتابته، فوقفتُ فيه على:

عظم خُلُقِ النبي ﷺ، بما فيه قال تعالى مادحًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وكيفية تعامله عليه الصلاة والسلام الناس مع اختلاف أنواعهم، وتباين طبائعهم. فكان حقًّا رحمةً مهداةً للجميع، كما وصفه ربه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- فبأخلاقِهِ عليه الصلاة والسلام أحبَّه أتباعُه، بل وأعداؤه، فقد كانوا يعرفونه بـ: «**الصادق الأمين**».

هذا هو الحبيب ﷺ:

- سموٌّ في أخلاقه.
- عُلوٌ في أدبه.

- رُقيٌّ في تعامله.
- زاهدٌ فيما أيدي الناس.
- لينٌ سهلٌ في أقواله وأفعاله.
- مُحِبٌّ للرفق في كلِّ شيءٍ.
- لا يغضب إلا إذا اِنتُهِكت المحارم.
- حريص على هداية الورى كلهم.
- متألمٌ لكُفرهم ولمخالفتهم، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فعجبًا تراه:

- **يرقُّ الكلام مع الجميع:**

○ فيترك الوقت لمُعَانِد بالكفر حتى يُنْهِي كلامَه، ثم يردُّ بأدب مبتسمًا قائلًا: «**أفرغت يا أبا الوليد**»؟

○ ويخاطب -بلطفٍ- أعرابيًّا بال في المسجد! ويقَوِّمَه على ما فعل.

○ ويُعَلِّم -بلُطفٍ- معاويةَ بن الحَكم، ويقَوِّمَه على ما فعل من كلامه أثناء الصلاة، فلم يكُ عالمًا بالحكم، وقد تأثَّر معاويةُ بما غضب عليه بقية الصحابة، فقال واصفًا الرسول ﷺ: «ما رأيتُ معلمًا قط مثله».

- يلاعبُ الصغيرَ قائلًا: «**يا أبا عُمير ما فعل النُّغير**»!!

- يضاحكُ عجوزًا فيقول لها: «**لن يدخلَ الجنةَ عجوزٌ**»!!

- يلاطفُ صِهرَه الذي ينام على التراب، فيقول له: «**قم يا أبا تراب**».

- يخاطب بعقلانيةٍ شابًّا أراد الإذن له بالزنا قائلًا: «**أترضاه لأمِّك** ... **أترضاه لأختك**»؟!

- يدلِّل زوجته، ويناديها بـ: «**يا عَائِش**» أو «**يا حميراء**» (تصغيرٌ لحُمْرةِ الوجنتين).

ومع هذا فإنه عليه الصلاة والسلام:

○ يقومُ من الليل ما شاء وتتفطَّر قدماه.

○ يبكي بكاءً شديدًا حتى تبتلَّ لحيتَه.

○ يجهِّز الجيوش.

○ وُعِد بالنَّصر قبل لقاء العدو، ولكنه يلِحُّ على الله تعالى بأن يَنصرَهُ، قائلًا: «**اللهم نصرك .... الذي وعدتني**».

○ يخصِفُ نَعلَه، ويَخيطُ ثَوبَه، ويكون في مِهنةِ أهلِه.

○ يصلحُ بين الناس.

○ يعفو ويصفح عمن آذاه.

○ يمر اليوم واليومان، ولا يُوقد في بيته نارًا.

○ يأكلُ إذا وجد طعامًا، ولا يعيبه قط، وإلا صام.

- بالبيان يفصحُ، وبالعفو يصفحُ.
- السهل طبعُه، واللين خُلقه.
- والحزم منهجه بين الشدة والرعونة؛ لتستقيم النفوس.

ستجد -يا مَن حظي بهذا الكتاب- (بل أُحبُّ أن تحظى به) سواء كنتَ:

- أبًا.
- أمًّا.
- مُعلِّمًا.
- مُربيًّا.
- داعيةً.
- خطيبًا.
- مُصلحًا.
- مُثقفًا.
- أو آخرًا.

بُغيتَك في تربية نفسِك أولًا، ومِن ثَمَّ تَقويم سلوكاتِ الناس عمومًا للوصول إلى هدايتهم، وجعلها بين البشرية، حيث إنها سببٌ رئيس في نقاء الغلاف الجوي بما يصعد إلى الربِّ ﷻ من **الأعمال الصالحة، قال تعالى**: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾[فاطر: ١٠].

وبالمقابل نجد ما نحن فيه من انتشار الأجواء المُمرضة بما يسمونه بـ: (الاحتباس الحراري) أو بـ(تلوث البيئة) أو غيرها مما له تأثير على الجو العام، وذلك بسبب الذنوب والمعاصي، نسأل الله تعالى العافية.

ستجد في صفحات هذا الكتاب:

- الخيرَ الكثير، والنفعَ العميم.
- والدروسَ المفيدةَ.
- والعبر العميمةَ.
- والتغلبَ على ضغوط الحياة ومشكلاتها.
- والكيفيةَ الإيجابيةَ في مواجهة أخطاء الغير عمومًا، من:
- أخطاء الأبناء.
- أخطاء البنات.
- أخطاء الوالدين.
- أخطاء الأقارب.
- أخطاء الجيران.
- أخطاء مرضى القلوب.
- وأخطاء الآخرين عمومًا.

بما يمنحُك مهاراتِ التواصل مع الآخرين باختيار:

- الوقت المناسب.
- المكان المناسب.
- الكلام المناسب.
- البيئة المناسبة.
- الشخص المناسب.

وإذا كنتُ قد تحدثتُ عن المؤَلَّف، فها هي كلماتي عن المُؤلِّف:

فقد تعرفتُ على أخي وحبيبي الدكتور عبد الله الشريفي أبي نبيل-حفظه الله تعالى ورعاه- من خلال تعييني مشرفًا على رسالته هذه التي بين أيدينا، فوجدتُه -والله تعالى حسيبه- دَمِثَ الخُلق، سَهلًا هَيِّنًا، نِعم الباحث؛ فقد كتب قلبُه هذه السطور بما يشعر به تجاه رسولنا عليه الصلاة والسلام؛ من حبٍّ وتوقير، وهو ما ما شعرتُ به عند قراءتي، فقرأتها بقلبي، وهو ما أراك تشعر به أيها القارئ الكريم.

وذلك في وقتٍ أمسّ ما نكونُ فيه إلى هذه السُّلوكات الطيبة، مقابلًا لم نجده في تعاملاتنا من فقدانها، حتى بين كثير ممن ينتمي للشريعة والالتزام.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

هذا والله تعالى أسألُ أن يرزقنا والجميعَ، العلمَ النافعَ، ويوفِّقنا إلى العمل الصالح، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم

قيده
الراجي عفو ربه العلي
أ . د **فريد إسماعيل التوني**
الأستاذ بجامعة مينسوتا الإسلامية
أخصائي المناهج والإشراف التربوي
بوزارة التربية والتعليم بمملكة البحرين الحبيبة
في ١٨ شوال لعام ١٤٤١هـ
الموافق: ١٠ يونيو لعام ٢٠٢٠م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحَمد لله، نَحمدُهُ ونستعينُهُ ونَستغفِرُهُ، ونعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا ومِن سيِّئَاتِ أعمَالِنَا، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إِله إِلَّا اللهُ وحدَهُ لا شرِيكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمـــران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ دراسةَ الأحاديثِ النبوية الشريفة من أفضل القُرب إلى ربِّ العالمين، ففيها بيان طريق خير الخلق، وعلم الحديث من أجلِّ العلوم وأشرفها وأعظمها عند الله ﷻ قدرًا، فبه يُعرف المراد من كلام الله ﷻ، وبه يَطَّلِع العبد على أحوال نبيه

ﷺ وشمائله، وناهيك بعلمٍ النبيُّ ﷺ بدايته، وإليه مستندُه وغايته، وحسبُ الراوي للحديث شرفًا وفضلًا، وجلالةً ونُبلًا، أن يكون في سلسلة مُنتهاها رسول الله ﷺ، ويروى عن بعض الصلحاء أنه قال: «أشدُّ البواعث وأقوى الدَّواعي لي على تحصيل علم الحديث لفظ: قال رسول الله ﷺ»(١).

فمن تحمل الحديث واشتغل بتعلمه وتعليمه، كان له الحظ الأوفر من هذا المدح، وكفى بذلك شرفًا لحملة الحديث، بل إن صرف العمر في تعلم الحديث وتعليمه أفضل من الاشتغال بنوافل القربات؛ لما فيه من:

- بيان القرآن الكريم؛ لقوله الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤].
- إحياء سنة النبيِّ ﷺ؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].
- والتأسي به ﷺ؛ لقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].
- ما يحصل لأهل الحديث من الفضل؛ لكثرة الصلاة على النبيِّ ﷺ التي ورد فيها ما ورد من الفضل الجزيل، بقوله ﷺ: «**أَوْلَىٰ النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ**

(١) ينظر: «قواعد التحديث» للقاسمي (١/ ٤٧).

أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاَةً»(١).

● وفي قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾[الإسراء: ٧١]، أشرف منقبة لأهل الحديث؛ لأنه لا إمام لهم غيره ﷺ.

● ويكفي أهلَ الحديث شرفًا وفضلًا دخولهم في دعوة النبيِّ ﷺ حين قال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا حَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ، حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، باب «ما أعطى الله محمدًا ﷺ»، حديث رقم (٣٢٤٤٧) (١٦/ ٥٠٦)، والترمذي باب «ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ»، حديث رقم (٤٨٤) (١/ ٤٩٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن حبان باب «الأدعية» حديث رقم (٩١١) (٣/ ١٩٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» باب «ما يؤمر به في ليلة الجمعة»، حديث رقم (٥٩٩٥) (٣/ ٣٥٣)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٣/ ٢٩٥)، وحسَّنه الشيخ الألباني لغيره في «صحيح الترغيب» (١٦٦٨)، **قلت**: والحديث حسنٌ لغيره.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسند زيد بن ثابت رضي الله عنه رقم (٦١٨) (١/ ٥٠٥)، وأحمد في أحاديث زيد بن ثابت رضي الله عنه رقم (٢١٥٩٠) (٣٥/ ٤٦٧)، وأبو داود باب «ما جاء في فضل نشر العلم»، حديث رقم (٣٦٦٠) (٣/ ٣٢٢)، والترمذي في باب «ما جاء في الحث على تبليغ السماع» حديث رقم (٢٦٥٦) (٤/ ٣٣٠)، وابن ماجه في باب «من بلَّغ علمًا» حديث رقم (٢٣٠) (١/ ٨٤)، وقال الألباني: «صحيح»، والحديث له شواهدُ كثيرة، وصححه كثير من العلماء، وهو صحيح.

قال سفيان بن عُيَينة رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَطْلُبُ الحدِيثَ إِلَّا وَفِي وَجْهِهِ نَضْرَةٌ»[٢].

كما أن في الاشتغال بعلم الحديث، تبليغ عن رسول الله ﷺ، وامتثال لأمره حين قال: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[٣].

فعُلم بذلك شرفُ أهل الحديث، وعُلوُّ مكانتهم في الدين، وأنَّ الاشتغال بالحديث من أعظم الطاعات، وأجلِّ القُربات، فينبغي على المسلم أن يعتني بحديث رسول الله ﷺ حفظًا وفهمًا، وتعلمًا وتعليمًا.

وإن من صور ومظاهر حبِّ النبيِّ ﷺ لأُمته، ومراعاته لأحوالهم النفسية في السيرة النبوية كثيرة، ولم يُؤْثَر عن نبي من الأنبياء عليهم السلام ذلك الحرص والمراعاة والحب الشديد لأمته، كما أثِر عن نبينا ﷺ، وصدق الله ﷻ حين قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

---

(١) سفيان بن عيينة ابن أبي عمران ميمون، مولى محمّد بن مزاحمٍ، أخي الضحاك بن مزاحم، الإمامُ الكبير، حافظُ العصرِ، شيخ الإسلام، أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، ولد سنة ١٠٧هـ، ومات يوم السبت أول يوم من رجب سنة ١٩٨هـ، ودفن بـ«الحجون»، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٢٤١٣) (٤/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: «شرف أصحاب الحديث» للخطيب (ص: ١٩).

(٣) أخرجه البخاري، باب «ما ذُكر عن بني إسرائيل»، حديث رقم (٣٤٦١) (٢/ ١٠٧٥).

قال ابن كثير رحمه الله[١] في «تفسيره»: وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيءُ الذي يعنت أمته ويشق عليها، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم[٢].

وقال السعدي رحمه الله[٣] في «تفسيره»: «أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقّه مقدمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتعزيره وتوقيره»[٤].

والناظر في السيرة النبوية المشرفة يجد صورًا وأمثلة كثيرة تدلُّ على مدى حبِّ النبيِّ ﷺ، ومراعاته لأمته، وفي الحديث عن عبد الله بنِ عمرِو بنِ العاصِ

---

(١) الإمام العلامة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصراوي الدمشقي الشافعي، المعروف بابن كثير، وُلِد سنة (٧٠١هـ)، في قرية مجيدل من أعمال بُصْرى الشام، تُوفِّي بدمشق يوم الخميس، السادس والعشرين من شعبان سنة (٧٧٤هـ) عن أربع وسبعين سنة، وكانت جنازته حافلة ومشهودة، ودُفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية لمحبته له، وتأثره به؛ لينعم بجواره حيًّا وميتًا.
ينظر: «طبقات المفسرين» للداوودي ترجمة رقم (١٠٣)، (١/ ١١١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير»، تفسير سورة التوبة (٤/ ٢٤١).

(٣) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، النجدي مفسر، محدث، فقيه، أصولي، متكلم واعظ، ولد في عنيزة القصيم بـ«نجد» سنة (١٣٠٧هـ)، وحفظ القرآن، وطلب العلم على علماء نجد، منهم: محمد بن عبد الكريم الشبل، ومحمد بن مانع، ومحمد الشنقيطي، ثم درّس ووعظ وأفتى وخطب في جامع عنيزة، وتوفي سنة (١٣٧٦هـ).
ينظر: «معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة (١٣/ ٣٩٦).

(٤) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (١/ ٣٥٦).

رضي الله عنهما (١): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تلا قولَ اللهِ عز وجل فِي سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ...الآية﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَىٰ، فَقَالَ اللهُ عز وجل يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**»(٢).

قال النووي رحمه الله(٣): هذا الحديث مشتمل علىٰ أنواع من الفوائد:

---

(١) عبد الله بْن عَمْرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بْن كَعْب بْن لؤي القرشي السهمي، كنى أبا محمَّد، وهو أحد العبادلة، وله صحيفته الصادقة كتبها عن النبي ﷺ، توفي عَبْد الله سنة ثلاث وستين، وقيل: سنة خمس وستين بمصر، وقيل: سنة سبع وستين بمكة، وقيل: توفي سنة خمس وخمسين بالطائف، وقيل: سنة ثمان وستين، وقيل: سنة ثلاث وسبعين، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (١٦١٨) (٣/ ٩٥٦).

(٢) أخرجه مسلم، باب «دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم»، حديث رقم (٢٠٢) (١/ ١٩١).

(٣) يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة النووي، الشيخ الإمام العلامة محي الدين، أبو زكريا، شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، والداعي إلى سبيل السالفين، ولد في العشر الأوسط من المحرّم، سنة إحدى وثلاثين وستمائة ومات في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة، ينظر:

منها: بيان كمال شفقة النبيِّ ﷺ على أمته، واعتنائه بمصالحهم، واهتمامه بأمرهم[١].

وإن مراعاة مشاعر الناس وأحاسيسهم مما يزيد في الودِّ والمحبة، ويؤلف بين قلوب أفراد المجتمع، وقد علَّمنا نبيُّنا ﷺ الكثيرَ من المبادئ والآداب التي نُرَاعِي من خلالها صيانةَ مشاعر الناس، ومراعاة أحاسيسهم، وذلك لأنَّ جرح الجسد يظهر أثره فورًا وبشكل واضح على الإنسان، لكنّ جرحَ المشاعر يكون في أعماق النفس بعيدًا عن المشاهدة والعيان، وهو أشدُّ إيلامًا وأقسى وقعًا.

جراحاتُ السّنانِ لها التئامُ ... ولا يُلْتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

والسيرة النبوية زاخرة بالأمثلة والمواقف الدالة على مراعاة مشاعر الآخرين، والتي سنستعرضها في هذا البحث إن شاء الله ﷻ.

وقد استعنتُ بالله ﷻ في كتابة هذا البحث في «مراعاة الأحوال النفسية من الأحاديث النبوية» (دراسة موضوعية).

وأسأل الله ﷻ التوفيقَ والسدادَ لي وللمسلمين، وأن يكون هذا العملَ خالصًا لله ﷻ، صوابًا على منهج رسوله ﷺ؛ إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

=

«طبقات الشافعية» للسبكي، ترجمة رقم (١٢٨٨) (٨/ ٣٩٥).

(١) ينظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للنووي (٣/ ٧٨).

أهمية الموضوع

وتظهر أهمية الموضوع في النقاط الآتية :

- الغفلة عن المنهج التربوي بسبب إلف كثير من العاملين في حَقل الدعوة إلى الله ﷻ مناهج لا تقبل المرونة في التعامل مع الناس حال تَغَيُّرِ أحوالهم وعاداتهم وبيئاتهم.
- التعرف على المنهج النبوي في كيفية التعامل مع الناس على اختلاف أصنافهم، وأن الله ﷻ بعث نبينا محمدًا ﷺ رحمةً للعاملين.
- فهم أحوال الناس النفسية يفتح للدعاة إلى الله ﷻ آفاقًا واسعة في التعامل معهم بمنهج وسطيٍّ دون إفراطٍ ولا تفريط.
- إعمالُ الحكمة بالدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنها الأصل في الدعوة إلى الله ﷻ.

منهجي في الكتاب

التزمت فيه الاستدلال بالأحاديث الصحيحة، وعزوها إلى مكانها، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بقولي: أخرجه الشيخان، أو أحدهما، وإن كان في غيرهما ذكرتُ ما حُكِمَ فيه، وأن أتقيد بضوابط المنهج العلمي الحديث.

وجاء البحث وفق خطة حَوت: مقدمةً، وثلاثة فصول بمباحثها، وذلك كما يلي:

أما المقدمة فقد تضمنت:

أولًا: كلمة الشكر.

ثانيًا: ملخص الكتاب.

ثالثًا: أهمية الموضوع.

رابعًا: منهجي في الكتاب.

الفصل الأول : المراعاة، وحقيقة النفس، وذلك ضمن مبحثين:

المبحث الأول: المعاني اللغوية والإصطلاحية:

أ- المراعاة.

ب- النفس.

المبحث الثاني: الخلاف في النفس وبيان أنواعها.

الفصل الثاني : القيم الحضارية في السنة النبوية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: بيان كمال بشرية نفسه الشريفة ﷺ وتأثرها بما يفرحها، ويَغُمُّها.

المبحث الثاني: حرصه ﷺ على صيانة مشاعر أمته، **وفيه ستة مطالب:**

المطلب الأول: قيمة الكلمة، وأدبُ التخاطب.

المطلب الثاني: هيئة المخاطِب وأثرها في نفسية المخاطَب.

المطلب الثالث: توجيهه ﷺ أمته إلى كيفية التعامل مع الناس.

المطلب الرابع: ترغيبه ﷺ أمته في إدخال السرور على بعضهم.

المطلب الخامس: تحذيره ﷺ من التعدي على مشاعر الآخرين.

المطلب السادس: إرشاده ﷺ أمته لحفظهم مشاعر أنفسهم.

المبحث الثالث: متابعة الصحابة رضي الله عنهم للنبيِّ ﷺ في مراعاته للأحوال النفسية.

الفصل الثالث: مراعاته ﷺ لأحوال أمته النفسية على مختلف طبقاتهم، وفيه توطئة، وتسعة مباحث وهي كالآتي:

المبحث الأول: مراعاته ﷺ لعلية القوم وكبرائهم.

المبحث الثاني: مراعاته ﷺ لأبناء من مات آباؤهم على الكفر أو النفاق.

المبحث الثالث: مراعاته ﷺ للفقراء.

المبحث الرابع: مراعاته ﷺ للمسافرين.

المبحث الخامس: مراعاته ﷺ للأطفال.

المبحث السادس: مراعاته ﷺ **للنساء، وفيه تمهيد، وأربعة مطالب :**

المطلب الأول: مراعاته ﷺ للأم.

المطلب الثاني: مراعاته ﷺ للبنت.

المطلب الثالث: مراعاته ﷺ للأخت.

المطلب الرابع: مراعاته ﷺ للزوجات، **وهن على ثلاثة أقسام :**

القسم الأول: لعموم الزوجات.

القسم الثاني: للجارية الصغيرة.

القسم الثالث: للغَيْرَى.

المبحث السابع: **مراعاته ﷺ لمن في قلبه إيمان، ومن خوى قلبه منه.**

المبحث الثامن: **مراعاته ﷺ لأصحاب الحالات الخاصة، وفيه سبعة مطالب:**

المطلب الأول: مراعاته ﷺ لحاد الطبع.

المطلب الثاني: للأعراب.

المطلب الثالث: لمن يُتقى فحشه.

المطلب الرابع: لمن يحب المدح.

المطلب الخامس: لضعيف العقل.

المطلب السادس: لمن حلَّت به مصيبةٌ.

المطلب السابع: لمن غلبت عليه شهوتُه.

المبحث التاسع: مراعاته ﷺ لمن يجهل أحكام الشرع، وفيه نماذج:

الأنموذج الأول: الجاهل بأحكام المسجد.

الأنموذج الثاني: الجاهل بحكم الكلام في الصلاة.

الأنموذج الثالث: مراعاته ﷺ للجاهل بالوقت في رمضان.

وأتبعتُ ذلك بفهرس الموضوعات.

الفصل الأول

المراعاة، وحقيقة النفس

وذلك يتضمن مبحثين:

المبحث الأول: **المعاني اللغوية والإصطلاحية.**

أ – المراعاة.

ب – النفس.

المبحث الثاني: **الخلاف في النفس وبيان أنواعها.**

المبحث الأول: المعاني اللغوية والاصطلاحية

- **المراعاة لغة:**

(رعى) الراء والعين والحرف المعتل، لهم أصلان؛ أحدهما: المراقبة والحفظ، والآخر: الرجوع[١].

قال الأزهري[٢]: والرعوىٰ لها ثلاثة معانٍ:

أحدها: الرعوى اسم من الإرعاء وهو الإبقاء، والرعوى رعاية الحفاظ للعهد، والرعوى حسن المراجعة والنزوع عن الجهل"[٣].

والمراعاة: المحافظة، والإبقاء على الشيء، والإرعاء: الإبقاء، وأرعيتُ فلانًا سمعي إذا استمعت ما يقول، والمراعاة : المناظرة والمراقبة، يقال: راعيتُ فلانًا مراعاة ورِعَاء إذا راقبته وتأمَّلت فعله[٤].

---

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٢/ ٤٠٨).

(٢) محمد بن أحمد الأزهر بن طلحة بن نوح بن الأزهر بن نوح بن حاتم بن سعيد بن عبد الرحمن الأزهري، أبو منصور، اللغوي، الأديب، الشافعي المذهب، الهروي، أحد الأئمة في اللغة والأدب، مولده في «هراة» بخراسان سنة (٢٨٢هـ)، ووفاته أيضًا بها سنة (٣٧٠هـ). ينظر: «معجم الأدباء» للحموي، ترجمة رقم (٩٦٥) (٥/ ٢٣٢١).

(٣) «تهذيب اللغة» للأزهري باب العين والراء (٣/ ١٠٤).

(٤) «تهذيب اللغة» للأزهري باب العين والراء (٣/ ١٠٤) و«لسان العرب» لابن منظور، فصل الراء المهملة (١٤/ ٣٢٧).

والمراعاة: المحافظة والإبقاء على الشيء، والإرعاء: الإبقاء، ويقال: أمر كذا أرفق بي وأرعى عليّ، ويقال: أرعيتُ عليه إذا أبقيتُ عليه ورحمتُه[١]، وفي الحديث: «**نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ، أَحْنَاهُ عَلَىٰ طِفْلٍ، وَأَرْعَاهُ عَلَىٰ زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ**»[٢].

والمراعاة: أصلها من كلمة رعى، يقال: راعيتُ الأمر: نظرتُ إلى أين يصير، وراعيته مراعاة: لاحظته محسنًا إليه، ومنه مراعاة الحقوق، وراعيتُ الأمر: راقبته ونظرت إلى ما يصير، وماذا منه يكون[٣].

- **المراعاة اصطلاحًا:**

إن المعنى الاصطلاحي ليس ببعيد عن المعنى اللغوي، ويجري مجراه، بمعنى أن المراعي يلاحظ ويرعى قول غيره ويضعه في اعتباره، ويحافظ عليه ويرفق به **ويمكن أن نخلص من خلال المادة اللغوية على الآتي:**

- الحفظ وحسن المراجعة.

---

(١) «لسان العرب» لابن منظور، فصل الراء المهملة (١٤/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري، باب «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»، حديث رقم (٣٤٣٤) (٢/ ١٠٦٨)، ومسلم، باب «من فضائل نساء قريش» حديث رقم (٢٥٢٧) (٤/ ١٩٥٨).

(٣) «تهذيب اللغة»، (٣/ ١٠٤)، و«مقاييس اللغة»، (٢/ ٤٠٨) و«لسان العرب»، (١٤/ ٣٢٩)، و«تاج العروس»، (٨/ ١٦٤).

- الإهتمام والمراقبة والمتابعة.
- الرفق والرحمة.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره»[٢].

فمراعاة الأحوال النفسية: تعني سياسة أمور الناس، واختيار الأصلح لهم، والاهتمام بشئونهم، والمحافظة عليهم، والرفق بهم والتخفيف عنهم، وتقدير حالهم وواقعهم.

وعليه نصل إلىٰ المعنىٰ الاصطلاحي وهو: الحفاظ على المخاطَبِ، وحسن المراجعة إليه، والاهتمام والمراقبة له، والمتابعة بالرفق والرحمة.

— **النفس لغة:**

(نفس) النون والفاء والسين أصل واحد يدلّ على خروج النَّسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، وإليه يرجع فروعه، منه التنفس: خروج النَّسيم من

(١) أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر بن أحمد الكناني الْعسقلانِي الأصل، ثم المصرِي، الشافعي، قاضي القضاة شيخ الإسلام، شهاب الدّين، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان (بفلسطين)، ولد بالقاهرة سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، ومات سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة بالقاهرة.
ينظر: «نظم العقيان في أعيان الأعيان»، (١/ ٤٥).

(٢) «فتح الباري» (٥٨٢/٣).

الجوف[١].

والنفس: كل شيءٍ يفرج به عن مكروب[٢]، وفي الحديثِ:

«**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإِنَّهَا مِنْ نَفَسِ الرَّحْمَنِ**»[٣]، يعني: أنها روح يتنفس بها عن المكروبِين.

ويقال للعين نفس، وأصابت فلانًا نفس، والنفس: الدم، وهو صحيح، وذلك أنه إذا فُقِد الدم من بدن الإنسان فقد نفسه، والحائض تسمى النفساء.

قال الأزهري : وقال أهل اللغة: النفس في كلام العرب علىٰ وجهين:

أحدهما: قولك: خرجت نفس فلان، أي: روحه.

ويقال: فِي نفس فلان أن يفعل كذا وكذا، أي: في روعه.

والضرب الآخر: معنى النفس حقيقة الشيء وجملته.

يقال: قتل فلان نفسه، والمعنى: أنه أوقع الهلاك بذاته كلها.

---

(١) «مقاييس اللغة»، (٥/ ٤٦٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» باب: «ما يقول إذا هاجت الريح»، رقم (١٠٧٧١) (٦/ ٢٣٢)، و«عمل اليوم والليلة»، باب: «ما يقول إذا هاجت الريح»، رقم (٩٣٥) (١/ ٥٢١)، والحاكم في «المستدرك»، رقم (٣٠٧٥) (٢/ ٣٩٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وقال الذهبي: «على شرط البخاري»، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، رقم (٩٦٩) (٢/ ٣٩٢)، والحديث إسناده صحيح.

وقال الزجاج[١]: **لكل إنسان نفسان:**

إحداهما: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إِذا نام فلا يعقل بها يتوفاها الله، كما قال ﷻ.

والأُخرىٰ: نفس الحياة، وإِذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس.

قال: وهذا الفرق بين : توفِّي نفس النائم فِي النوم، وتوفِّي نفس الحي[٢].

- النفس اصطلاحًا:

هي: الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية[٣].

ويُطلق مصطلح النفس علىٰ معنيينِ:

أحدهما: أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة، وهي القوى الحيوانية المضادة للقوى العقلية.

---

(١) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد (٢٤١ هـ)، ومات (٣١١هـ)، من أهل العلم والأدب والدين، من مصنفاته: «معاني القرآن»، و«الوقف والابتدا»، و«خلق الإنسان»، ينظر: «البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة» (١/ ٤٠).

(٢) «تهذيب اللغة» للأزهري، (١٣/ ٨)، و«مختار الصحاح»(ص: ٣١٦)، و«مقاييس اللغة»، (٥/ ٤٦٠)، و«المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده، (٥/ ٥٢٥)، و«الغريبين في القرآن والحديث»، (٦/ ١٨٦٩)، و«كتاب الروح» لابن القيم(ص:١٧٠ – ١٧٩).

(٣) «التعريفات» للجرجاني (١/ ٢٤٢)، و«التعاريف» للمناوي، (١/ ٧٠٥).

والثاني: أن يُطلق ويراد به حقيقة الآدمي وذاته؛ فإن نفس كل شيءٍ حقيقته، وهو الجوهر الذي هو محل المعقولات، وهو من عالم الملكوت[١].

(١) «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (٣/ ٣-٤).

المبحث الثاني: الخلاف في النفس وبيان أنواعها

قال ابن حزم[١]: «اختلف الناس في النفس، فذكر عن أبي بكر عبد الرحمن ابن كيسان الأصم[٢] إنكار النفس جملة وقال: «لا أعرف إلا ما شاهدته بحواسي».

وقال جالينوس[٣] **وأبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف**[٤] : «النفس عرض

---

(١) ابن حزم الأندلسي: هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد. (المتوفى: ٤٥٦هـ)، ينظر: «سير أعلام النبلاء»، ترجمة رقم (٩٩) (١٨/ ١٨٤).

(٢) عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم المعتزلي، صاحب المقالات في الأصول، وهو من طبقة أبي الهذيل العلاف أو أقدم منه، توفي (٢٢٥ هـ)، ينظر: «لسان الميزان»، ترجمة رقم (١٦٧٥) (٣/ ٤٢٧).

(٣) جالينوس الحكيم الفليسوف الطبيعي اليوناني/ من أهل مدينة فرغاموس من أرض اليونانيين، إمام الأطباء فِي عصره، ورئيس الطبيعيين فِي وقته، ومؤلف الكتب الجليلة فِي صناعة الطب وغيرها من علم الطبيعة وعلم البرهان، وقال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: كَانَ جالينوس بعد المسيح بنحو مائتي سنة، وبعد بقراط بنحو ستمائة سنة، وبعد الإسكندر بنحو خمسمائة سنة ونيف، ولا أعلم بعد أرسطوطاليس أعلم بالطبيعي من هذين الفاضلين -أعني بقراط وجالينوس-، مات في صقلية هنالك، وقبره بِهَا، وعاش ثمانيًا وثمانين سنة، وهو مفتاح الطب وباسطه وشارحه بعد المتقدمين، وَلَهُ فِي الطب سنة عشر ديوانًا كلها معلقة بعضها ببعض، وهو من أتباع المدرسة الفيثاغورسية ينظر: «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» (١/ ١٠٠)، و«سلم الوصول إلى طبقات الفحول» لـ«حاجي خليفة» (٥/ ١٠٨).

(٤) محمد بن الهذيل بن عبيد الله بن مكحول، أبو الهذيل العلاف، مولى عبد القيس، شيخ

من الأعراض»، **ثم اختلفا فقال جالينوس**: «هي مزاج مجتمع متولد من تركيب أخلاط الجسد»، (وقوله هذا يخالف ما يقول به أي وقع في النقيض).

وقال أبو الهذيل: «هي عرض كسائر أعراض الجسم».

وقالت طائفة: النفس هي النسيم الداخل الخارج بالتنفس، فهي النفس.

قالوا: والروح عرض وهو الحياة، فهو غير النفس وهذا قول الباقلاني ومن اتبعه من الأشعرية.

وقالت طائفة: النفس جوهر ليست جسمًا، ولا عرضًا، ولا لها طول، ولا عرض، ولا عمق، ولا هي في مكان ولا تتجزأ، وأنها هي الفعالة المدبرة.

وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالميعاد إلىٰ أن النفس: جسم طويل عريض عميق ذات مكان عاقلة مميزة مصرفة للجسد[1].

قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: وبهذا نقول والنفس والروح اسمان مترادفان لمسمى واحد ومعناهما واحد.

=

المعتزلة ومصنف الكتب في مذاهبهم وهو من أهل البصرة، ورد بغداد، شيخ الاعتزال ورأس الضّلال، وكان خبيث القول، فارق إجماع المسلمين، توفي في أول خلافة المتوكل في سنة خمس وثلاثين ومائتين وكانت سنه مائة سنة.

ينظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، ترجمة رقم (١٧٥٠) (٤/ ٥٨٢).

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم الظاهري، (٥/ ٤٧).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: النفس قائمة بنفسها، تبقى بعد فراق البدن بالموت منعمة أو معذبة، وهذا مذهب أهل الملل من المسلمين وغيرهم، وهو قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين، وإن كان كثير من أهل الكلام يزعمون أن النفس هي الحياة القائمة بالبدن.

ويقول بعضهم: هي جزء من أجزاء البدن كالريح المترددة في البدن أو البخار الخارج من القلب.

ففي الجملة: النفس المفارقة للبدن بالموت ليست جزءا من أجزاء البدن، ولا صفة من صفات البدن عند سلف الأمة وأئمتها، وإنما يقول هذا وهذا من يقوله من أهل الكلام المبتدع المحدث من أتباع الجهمية والمعتزلة ونحوهم. والفلاسفة المشاؤون يقرون بأن النفس تبقى إذا فارقت البدن، لكن يصفون النفس بصفات باطلة، فيدعون أنها إذا فارقت البدن كانت عقلًا [٢].

---

(١) الإمام والحافظ العَلَم، شيخ الإسلام، أَحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن عبد الله ابن أبي القاسم ابن تَيْميَّة، الإمام العلاَّمة، الحافظ الحُجَّة، فريد العصْر، بَحْر العلوم، تقيّ الدين أَبو العَبَّاس الحَرَّاني ثمَّ الدِّمشْقي، وُلد بـ«بحرَّان» في ربيع الأَوَّل سنة إِحدى وستين وستمائة، وتوفي معتَقَلًا بقلعة دمشق في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وشَيَّعَه أُمَمٌ لا يُحْصَون إِلى مقبرة الصُّوفية، غَفَر الله له ورحِمَهُ = = ينظر: «معجم الشيوخ الكبير» للذهبي ١/ ٥٦، و«فوات الوفيات» لمحمد شاكر، ترجمة رقم (٣٤) (١/ ٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٩/ ٢٧٢).

قلت: وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «النفس قائمة بنفسها، تبقى بعد فراق البدن بالموت منعمة أو معذبة...» هو الصواب والعلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقال أيضًا: ويقال: النفوس ثلاثة أنواع، وهي:

النفس الأمارة بالسوء: التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي.

والنفس اللوامة: وهي التي تذنب وتتوب فعندها خير وشر، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت، فتسمى لوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على الذنوب؛ ولأنها تتلوم أي تتردد بين الخير والشر.

والنفس المطمئنة: وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك، وقد صار ذلك لها خلقًا وعادة وملكة، فهذه صفات وأحوال لذات واحدة، وإلا فالنفس التي لكل إنسان هي نفس واحدة، وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه.

وقد قالت طائفة من المتفلسفة الأطباء: إن النفوس ثلاثة:

١- **نباتية،** محلها الكبد.

٢- **وحيوانية،** محلها القلب.

٣- **وناطقية،** محلها الدماغ.

وهذا إن أرادوا به أنها ثلاث قوى تتعلق بهذه الأعضاء فهذا مسلَّمٌ، وإن أرادوا أنها ثلاثة أعيان قائمة بأنفسها فهذا غلط بيِّن[١].

وينتقل ابن سينا[٢] بعد ذلك إلىٰ تعريف القوىٰ النفسانية، حيث يشير إلىٰ أن هذه القوىٰ تنقسم بالقسمة الأولىٰ إلىٰ ثلاثة أقسام هي :

١ – **النفس النباتية وهي**: كمال أول لجسم طبيعي آلي له الحياة بالقوة من جهة ما يتولد ويربو وينمو، ويغتذي، ويتكاثر، والغذاء جسم مِنْ شأنه أن يتشبه بطبيعة الجسم الذي قيل أنه غذاؤه، ويزيد فيه بمقدار ما تحلل، أو أكثر، أو أقل.

٢ – **النفس الحيوانية وهي**: كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٩/ ٢٩٤).

(٢) أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات الإلاهيات، أصله من بلخ، قال ابن قيم الجوزية: «وكان ابن سينا – كما أخبر عن نفسه – هو وأبوه، من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين»، وقال ابن تيمية: «تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات، والنبويات، والمعاد، والشرائع، لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم؛ فإنه استفادها من المسلمين، وإن كان إنما يأخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام كالإسماعيلية؛ وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالإلحاد»، ينظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ١٦٠)، و«سير أعلام النبلاء» ترجمة رقم (٣٥٦) (١٧/ ٥٣١).

٣ – **النفس الإنسانية وهي**: كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفعال الكائنة بالاختيار الفكري، واستنباط الرأي، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية ثم يجعلون لكل نفس قوى[١].

(١) «علم النفس في التراث الاسلامي»، (١/ ٤٩٦) ابن سينا حياته-آثاره وفلسفته لمحمد كامل الحر.

الفصل الثاني

القيم الحضارية في السنة النبوية

المبحث الأول: كمال بشرية نفسه الشريفة ﷺ وتأثرها بما يفرحها ويغمها

لقد شرَّف الله ﷻ نبينا محمدًا ﷺ بالرسالة، وفضَّله على سائر خلقه، وأولاه عنايةً خاصةً، وبلغ المنزلة التي لم يبلغها بشر، إلا أن ذلك لم يخرجه بحال من الأحوال عن بشريته التي خلقه الله عليها؛ ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه [1] قال: سَمِعتُ رسول اللهِ ﷺ يقُولُ: «**اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها**

---

(١) **أبو هريرة الدوسي**: صاحب رسول الله ﷺ، وأكثرهم حديثًا عنه، وهو دوسي من دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن مالك بن نصر ابن الأزد.

قال خليفة بن خياط، وهشام بن الكلبي: اسمه عمير بن عامر بن عبد ذي الشرى بن طريف بن عتاب بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس.

وقد اختلف في اسمه اختلافًا كثيرًا، لم يختلف في اسم آخر مثله ولا ما يقاربه، فقيل: عبد الله بن عامر، وقيل: برير بن عشرقة، ويقال: سكين بن دومة، وقيل: عبد الله بن عبد شمس، وقيل: عبد شمس؛ قاله يحيى بن معين، وأبو نعيم، وقيل: عبد نهم، وقيل: عبد غنم، وقيل: غير ذلك، من المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ حيث روى (٥٣٧٤) حديثًا، مات سنة سبع، وقيل: سنة ثمان، وقيل: تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة، ينظر: «أسد الغابة» لابن الأثير، ترجمة رقم (٦٣٢٦) (٦/ ٣١٣)، و«تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٨٣١٥) (١١/ ٥٧٥).

له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»[١]، دلالةٌ على أنه ﷺ يغضب ويرضى، يفرح ويحزن، يصوم ويفطر، ينام ويستيقظ، وينكح وله ذرية، ويحب النساء وحُسنُهن[٢]، قال الله ﷻ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قدم النبيُّ ﷺ خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتل زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سد الروحاء حلَّت، فبنى بها، ثم صنع حيسًا في نطع صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: «**آذن من حولك**»، فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على صفية ﷺ، ثم خرجنا إلى المدينة قال: فرأيتُ رسول الله ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[٣].

---

(١) أخرجه البخاري مختصرًا، باب: قول النبي ﷺ: «مَنْ آذَيْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً»= = حديث رقم (٦٣٦١) (٤/ ١٩٩٩)، ومسلم، باب: «من لعنه النبي ﷺ»، حديث رقم (٢٦٠١) (٤/ ٢٠٠٨)، واللفظ له.

(٢) وكما صح عند البخاري رحمه قوله ﷺ: «....لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، باب «الترغيب في النكاح»، حديث رقم (٥٠٦٣) (٤/ ٣٥).

(٣) أخرجه البخاري، باب «هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها» حديث رقم (٢٢٣٥) (٢/ ٦٥٧).

ومارس ما يمارسه البشر في معظم شئون حياتهم، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، فالفرق بينه وبين البشر أنه ﷺ يوحى إليه، مما جعله على دراية بأحوال الناس، تمر به فترات سرور، فتبرق أسارير وجهه فرحًا بما يسره، فعلم قيمة السعادة والسرور، وأثرها على حياة الإنسان، وقد مرت به فترات غمٍّ، وحُزنٍ يغدو منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤]، فعرف أثر الحزن على صاحبه، وتكديره لحياته، وما ترتب عليه من الآم.

جاء في الحديث: «فتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنًا غدَا منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذِروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدَّى له جبريلُ فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًّا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدَا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك»(١).

أثار بعضُ الطاعنين شبهةً من خلال الحديث الآنف الذِّكر أنَّ النبيَّ ﷺ

(١) أخرجه البخاري، باب «أول ما بدي به رسول الله ﷺ من الوحي»، حديث رقم (٦٩٨٢) (٤/ ٢١٨٦).

حاول الانتحار.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

أولًا: هذا من كلام الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ[1] فيما بلغه من فعل النبيِّ ﷺ، فلو افترضنا أنَّ هذا الكلام باطل، ولا يمكن أن يفعله رسول الله ﷺ؛ فحسب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه نقل ما صحَّ عنده عن الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ وهو إمام من أئمة التابعين.

ومعلوم عند المتخصصين في الحديث أنَّ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عندما يروي الحديث الطويل قد يكون في ذلك الحديثِ لفظة أو جملة قالها بعض الرواة، كتفسير، أو رواية مرسلة يذكرها الراوي حين يروي ذلك الحديث الطويل، فالبخاري يذكر الحديثَ بطوله بكلِّ ما ورد فيه، ولا يحذفُ منه تلك اللفظة أو الجملة التي قالها بعض الرواة، وأهل الحديث يميزون الحديث المتصل من غيره.

ومثال ذلك هذا الحديث الذي أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب بدء الوحي، فقد قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ أثناء روايته للحديث الطويل الذي أخرجه عن عروة بن الزبير بن العوام عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وفتر الوحي فترة حتى حزن

---

(١) مُحَمَّد بن مسلم بن عُبَيد الله بن عَبد الله بْن شهاب بن عَبد اللهِ بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي الزُّهْرِيّ، أَبُو بكر المدني، سكن الشام، ولد سنة خمسين، وقيل: إحدى وخمسين، ومات سنة ثلاث، أو أربع وعشرين ومئة، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٦٢٣٥) (٩/ ٣٢٥).

النبي ﷺ فيما بلغنا، حزنًا غدَا منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال»[١]؛ فقول الزهري رحمه الله: «فيما بلغنا» يبين أنَّ هذه الجملة ليست مما أخرجه عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، بل أخرجها عن أناس لم يسمِّهم، فهي روايةٌ غير متصلةٍ، وليست على شرط البخاري في الصحة، وإنما ذكرها البخاري لكونها متصلة في نفس الحديث الطويل.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: القائل «فيما بلغنا» هو الزهري، ومعنى الكلام: أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة، وهو من بلاغات الزهري، وليس موصولًا[٢].

وقد روى هذا الحديثَ الإمامُ أحمدُ رحمه الله في مسنِدِه كما أخرجه البخاري، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط رحمه الله محقق «المسند»: «قوله: حتى حزن رسول الله ﷺ -فيما بلغنا- حزنًا، غدا منه مرارًا، كي يتردى من رءوس شواهق الجبال ... إلخ»، إنما هو من بلاغات الزهري رحمه الله، ومعلوم عند أهل العلم أن بلاغات الزهري واهية وليست بشيءٍ[٣].

ثانيًا: لو صح هذا الحديث فلا غبار عليه، فيكون النبي ﷺ أراد أن يتردى

---

(١) أخرجه البخاري، باب «أول ما بدي به رسول الله ﷺ من الوحي»، حديث رقم (٦٩٨٢) (٤/ ٢١٨٦).

(٢) «فتح الباري»، (١٢/ ٣٥٩).

(٣) «مسند أحمد»، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد وآخرون (٤٣/ ١١٤).

من شواهق الجبال بسبب ما جاءه من النبأ العظيم، ورسول الله ﷺ بشر، وقد ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم خوف بعض الأنبياء فيما هو أقل من هذا الأمر، فقال عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]، وقال عنه لما رأى العصا تتحول إلى حية: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وقال عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[يوسف: ١٣].

فهذه أمثلةٌ على الخوف الطبعي البشري للأنبياء عليهم السلام.

فلو صحَّ الحديث فلا يُنكر وقوع هذا من رسول الله ﷺ وهو في أول نبوته، وقد ثبت أنه ﷺ نزل من غار حراء مُسرعًا إلى أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ليقصَّ عليها قصته، وقال: «**زملوني زملوني.. دثروني دثروني**»، وذهب معها إلى ورقة بن نوفل[1] ليخبره بحديثه ويسأله عن حاله.

---

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي، وهو الذي أتته خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بالنبي ﷺ في حديث المبعث، وقال للنبي ﷺ: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال النبي ﷺ: «**أو مخرجي هم**»؟ قال: نعم، لم يأتِ أحدٌ قط بمثل ما جئت= = به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يلبث ورقة بن نوفل أن توفى، ينظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ترجمة (٦٦٧) (٢/ ١٤٣).

ثالثًا: قال الإسماعيلي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: فيما نقله عنه ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الحديث: وأما إرادته إلقاء نفسه من رءوس الجبال بعدما نبئ، فلضعف قوته عن تحمّل ما حملّه من أعباء النبوة، وخوفًا مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا، كما يطلب الرجل الراحة من غمٍّ يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلًا، حتى إذا تفكَّر فيما فيه صبَّره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه.

قلت: أما الإرادة المذكورة في الزيادة الأولى ففي صريح الخبر أنها كانت حزنًا على ما فاته من الأمر الذي بشَّره به ورقةُ، وأما الإرادة الثانية بعد أن تبدَّى له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال له «إنك رسول الله حقًّا» فيحتمل ما قاله، والذي يظهر لي أنه بمعنى الذي قبله، وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي فوقع قبل ذلك في ابتداء مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويمكن أن يؤخذ مما أخرجه الطبري[٢] من طريق

---

(١) أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني، الفقيه الإمام، الجامع بين الفقه والحديث والأخبار، كان حجة، كثير العلم، كبير الشَّافعية بناحيته، حسن الدين، ولد سنةَ سبعٍ وسبعين ومئتين، مات في رجب سنةَ إحدى وسبعين وثلاث مئة، ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي، ترجمة رقم (٣٤١٠) (١٢/ ٣١٤).

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، توفي عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاث مائة، ينظر: «تاريخ بغداد» للخطيب، ترجمة (٥٣٩) (٢/ ٥٤٨).

النعمان بن راشد[١] عن ابن شهاب فذكر نحو حديث الباب وفيه: «فقال لي يا محمد أنت رسول الله حقًّا»، قال: «**فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل**» أي: من علوه[٢].

قلت: هذا كلام أهل العلم في شرح هذا الحديث وتوجيهه، ولو أن الطاعنين في السنة النبوية سألوا أهل العلم المتخصصين كما أمر الله ﷻ في كتابه الكريم لكان خيرًا لهم وأهدى سبيلًا.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ٨٣].اهـ

فهو ﷺ مُرهف الحس، خبير النفس، طبيب القلب، لم يألُ جهدًا في إسعاد كل أحد، وإبعاد كل ما يكدر وينقص عيشه، قال الله ﷻ عنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وتأثر نفسه الشريفة ﷺ بما يفرحها إما أن يكون عقب أمر رجوه، أو بُشرىٰ لأمته، أو عقب غمٍّ.

---

(١) النعمان بن راشد الجزري، أبو إسحاق الرَّقِّيّ، مولى بني أمية وهو ضعيف الحديث = = ينظر: «الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي، ترجمة رقم (١٩٥٥) (٨/ ٢٤٦).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر، (١٢/ ٣٦٠، ٣٦١).

فالأول: ما جاء عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَىٰ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رُءُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا فَقَالَ إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»[(١)]؟ وذلك أن الناس كانوا قد ارتابوا في نسب أسامة بن زيد ﵄؛ إذ كان زيد ﵁ أبيض اللون، وجاء أسامة ﵁ أسود اللون.

قال أبو داود ﵀: سمعت أحمد بن صالح يقول: كَانَ أُسَامَةُ أَسْوَدَ شَدِيدَ السَّوَادِ مِثْلَ الْقَارِ، وَكَانَ زَيْدٌ أَبْيَضَ مِثْلَ الْقُطْنِ"[(٢)].

وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَكَلَّمُونَ فيهمَا بِمَا يسوء النَّبِيَّ ﷺ سَمَاعه، فَلَمَّا سمع قَول مجزِّزًا فيهمَا، فَرح بِهِ، وسرِّي عَنْهُ[(٣)]، وذلك لما لأسامة من محبةٍ جمةٍ عند رسول الله ﷺ.

وفي موقف آخر: وهو سروره ﷺ بصلاة الله ﷻ عشر صلوات على مَنْ صلى عليه ﷺ، كما في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ[(٤)]، عَنْ أَبِيهِ[(١)]؛ أَنَّ

---

(١) أخرجه البخاري، باب «القائف»، حديث رقم (٦٧٧١)، (٤/ ٢١١٤)، ومسلم، باب: «العمل بالحاق القائف»، حديث رقم (١٤٥٩)، (٢/ ١٠٨١).

(٢) أخرجه أبو داود، باب «في القافة»، حديث رقم (٢٢٦٨)، (٣/ ١٠٥).

(٣) «شرح السنة» للبغوي، باب «القائف»، (٩/ ٢٨٥).

(٤) عبد الله بْن أَبِي طَلْحَة الأنصاري، واسم أبي طلحة زيد بن سهل، ولد عَبْد اللهِ على عهد رَسُول اللهِ ﷺ، فبعثت بِهِ أمه أم سُلَيْم ابنها أنس بْن مَالِك إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ فحنكه بتمرة، ودعا لَهُ، وسماه عَبْد اللهِ. قال أنس بْن مَالِك: فما كَانَ فِي الأنصار ناشى أفضل

رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالْبِشْرُ يُرَى فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ جَاءَنِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ، يَقُولُ: أَمَا يُرْضِيكَ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا**»(٢).

أما الموقف الثالث: وهو ما كان عقب غمِّه ﷺ بالبلاء الجلل، والخطب الذي زلزل أركان المدينة، ذاك الغم الذي وقع له من اتهام المنافقين لأم المؤمنين عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما، المشهور بحادثة الإفك.

=

منه، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (١٥٨٢) (٣/ ٩٢٩).

(١) زيد بن سهْلِ بن الأسْوَد بن حَرَام الأنصاريُّ النّجَّارِيُّ، أبُو طلْحَةَ المدني، مشهور بكنيته من كِبارِ الصحابَة، شَهِدَ بدرًا وما بعدها، مات سنة (٣٤)، وقيل: عاش بعده ﷺ ٤٠ سنة، ينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٣٠٥٥) (٤/ ١٦٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، باب «في ثواب الصلاة على النبي ﷺ»، حديث رقم (٨٧٨٧)، (٢/ ٥١٦)، وأحمد، باب «حديث أبي طلحة»، حديث رقم (١٦٣٦٣)، (٢٦/ ٢٨٣)، والدارمي، باب «في فضل الصلاة على النبي ﷺ»، حديث رقم (٢٧٧٣)،.....= = (٢/ ٤٠٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» باب «الفضل في الصلاة على النبي ﷺ» حديث رقم (١٢١٩) (٢/ ٧٧)، واللفظ له وأيضًا في «عمل اليوم والليلة»، باب «ثواب الصلاة على النبي ﷺ»، حديث رقم (٦٠)، (١/ ١٦٥) وقال الألباني: صحيح، ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٨٢٩) والحديث بهذا الإسناد صحيح فيه سليمان مولى الحسن لم يرو عنه سوى ثابت البناني، قال عنه النسائي: ليس بالمشهور، وللحديث شواهد يتقوى بها.

ففي الحديث أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي فيها، فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل، فقمتُ حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى الرحيل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، قالت: فكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرَّس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرت وجهي بجلبابي، فوالله ما

يكلّمني كلمة، ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره: عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ ثم يسلم فيقول: «**كيف تيكم**»؟ فذاك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، كنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح -وهي ابنة أبي رهم ابن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب- فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما تقولين أتسبين رجلًا قد شهد بدرًا؟ قالت: أي هنتاه! أو لم تسمعي ما قال؟! قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل عليَّ رسول الله ﷺ ثم قال: «**كيف تيكم**»؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله

ﷺ فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية، هوِّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها، قالت: قلت : سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟! قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك في عائشة**»؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت علىٰ أهل بيتي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما عملت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل علىٰ أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قال: فقام سعد بن

عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر عليه، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال سعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان -الأوس والخزرج- حتى همُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفِّضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي، قالت: فبينا نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه**»، قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي، حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، فقال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم

بهذا حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة -والله يعلم أني بريئة- فلا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنتُ أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت: فلمَّا سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «**أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك**»، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي قالت: فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] عَشْرَ آيَاتٍ ...الحديث»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، باب: «بَابٌ ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْكَاذِبُونَ﴾»، حديث رقم (٤٧٥٠)، (٣/ ١٤٨٤)، ومسلم، بَابٌ «فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ وَقَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاذِفِ»، حديث رقم (٢٧٧٠)، (٤/ ٢١٢٩).

وموقف آخر: ففي الحديث عَنِ جَرِيرِ بْنِ عبدالله ﷺ [١] قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ -أَوِ الْعَبَاءِ- مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، قَالَ: فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلالًا، فَأَذَّنَ، وَأَقَامَ، فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١]، وَقَرَأَ الآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]: «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ**» حَتَّى قَالَ: «**وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَعْنِي كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ**

---

(١) جرير بن عَبْد الله بن جابر، وهو الشّليل (بالمعجمة كما صرح به في «القاموس»، والزبيدي، وفي «تهذيب التهذيب»: السليل، وقال في هامشه: ذكر في «المغني»: السليل- بفتح سين مهملة) ابن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عويف بن خزيمة [بن حرب] بن على بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر، وهو مالك بن عبقر بن أنمار ابن إراش بن عمرو بن الغوث البجلي، يكنى أبا عمرو، وقيل: أبا عبد الله، نزل الكوفة وسكنها، وكان له بها دار، ثم تحول إلى قرقيسياء، ومات بها سنة أربع وخمسين، ينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٣٢٢) (١/ ٢٣٦).

مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنتقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1].

(١) أخرجه مسلم، باب: «الحث على الصدقة»، حديث رقم (١٠١٧)، (٢/ ٧٠٤).

المبحث الثاني: حرصه ﷺ على صيانة مشاعر أمته

المطلب الأول: قيمة الكلمة، وأدب التخاطب

إنَّ النفسَ مجبولةٌ على محبةِ التأنيس والتيسير، ومنَ القيم الحضارية الراقية التي عنيت السُّنةُ بتحقيقها أدبُ الخطاب، فقد تنوعت النصوصُ الداعية إلى التزام تلك الآداب وتعددت مشاهدها في سنة النبيِّ ﷺ.

فالكلمة من عظيم مِنن الله ﷻ على عباده، فلها الأثر النافذ في القلوب، وهي من موجبات النجاة أو الخسران، قال الله ﷻ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] ، وهي دالة على عقل صاحبها، ومنبئةٌ عن صلاح القلب وفساده، وهي جديرة بتلك العناية.

وعلى أهل العلم إبراز تلك الآداب التي حوتها السنة النبوية، وتقريبها إلى الناس، وتسهيلها لهم، وإعلاء قيمة الجمال في القول، فالكلمات قوالب المعاني، والكلمات الجميلة خير وعاء لحمل المعاني الجميلة الرائعة، وجمال القول داخل في عموم الجمال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَيُسْتَحَبُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقْصِدَ إلَى تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ بِتَرْكِ هَذِهِ الْمُسْتَحَبَّاتِ؛ لِأَنَّ مَصْلَحَةَ التَّأْلِيفِ فِي الدِّينِ أَعْظَمُ مِنْ أي

مَصْلَحَةٍ»[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه (يرفع) الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم**»[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**الكلمة الطيبة صدقة**»[٣].

وعن عدي بن حاتم[٤] ﷺ، قال: ذكر النبي ﷺ النار فتعوَّذ منها وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار فتعوَّذ منها وأشاح بوجهه، ثم قال: «**اتقوا النار ولو بشق**

(١) مجموع الفتاوى، باب «ترك المستحبات جائز لتأليف القلوب»، (٢٢/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، باب «حفظ اللسان»، حديث رقم (٦٤٧٨)، (٤/ ٢٠٣٢)، ومسلم، بَابُ «التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ»، حديث رقم (٢٩٨٨)، (٤/ ٢٢٩٠).

(٣) أخرجه البخاري، باب «طيب الكلام»، حديث رقم (٦٠٢٣)، (٤/ ١٩٠٤)، واللفظ له، ومسلم، بَابُ «الطِّيَرَةِ وَالْفَأْلِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الشُّؤْمِ» حديث رقم (٢٢٢٤)، (٤/ ١٧٤٦).

(٤) عدي بْن حاتم بْن عَبْد الله بْن سعد بْن الحشرج بْن امرئ القيس بْن عدي بْن أخزم بْن أَبِي أخزم ابن رَبِيعة بْن جرول بْن ثعل بْن عَمْرو بْن الغوث بْن طي الطائي، وأبوه حاتم هُوَ الجواد الموصوف بالجود، الَّذِي يضرب بِهِ المثل، يكنى عدي أبا طريف، وفد عدي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سنة تسع فِي شعبان، وقيل: سنة عشر، فأسلم وكان نصرانيًّا، توفي سنة سبع وستين، وقيل: سنة ثمان، وقيل: سنة تسع وستين، وله مائة وعشرون سنة، ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ترجمة (١٨٥١) (٦/ ٩٩)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر ترجمة رقم (١٧٨١) (٣/ ١٠٥٧).

تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة»[١].

وفي الصحيحين مِنْ حديثِ سعيدُ بنُ المُسيَّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] عَنْ أَبِيهِ المسيب ابن حزن رضي الله عنه [٣] قال: إن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبيُّ ﷺ وعنده أبو جهل فقال : «**أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري، باب «اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة»، حديث رقم (١٤١٧)، (١/ ٦٤٧)، ومسلم، باب «الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار»، حديث رقم (١٠١٦)، (٢/ ٧٠٤).

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي، المخزومي، أَبُو مُحَمَّد المدني، سيد التابعين، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل: لأربع سنين، توفي سنة ثلاث، ويقال: أربع وتسعين، ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ترجمة رقم (٦٨٣) (٥/ ٨٩)، و«الطبقات» لخليفة بن خياط، ترجمة رقم (٢٠٩٦) (١/ ٤٢٥)، و«تهذيب الكمال» للمزي ترجمة رقم (٢٣٥٨) (٤/ ٢١٢).

(٣) المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي الْمَخْزُومِيّ، يكنى أَبَا سَعِيد، والد سَعِيد بْن المسيب الفقيه، هاجر مع أَبِيهِ حزن بْن أبي وهب، كان المسيب ممن بايع تحت الشجرة، ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ترجمة رقم (١٠٩٦) (٦/ ١٠٠)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٢٤٠٧) (٣/ ١٤٠٠).

(٤) أخرجه البخاري، باب «قصة أبي طالب» حديث رقم (٣٨٨٤)، (٣/ ١١٨٥)، ومسلم، باب «الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع»، حديث رقم (٢٤)، (١/ ٥٤).

فتأمل هذا الأدب من النبيِّ ﷺ في خطابه لعمه، والذي بلغ الغاية فيه: «أَيْ عَمّ...» وكأني به ﷺ قد تغيرت ملامح وجهه، وأوشكت عيناه أن تأذن لدمعها بالفيض؛ حرصًا على هداية عمِّه الذي وقف معه في وجه قومه.

المطلب الثاني: هيئة المخاطب وأثرها في نفسية المخاطب

الكلمات لا تعكس دائمًا ما يعتقده الناس، وما يشعرون به، بينما تمتلك لغة الجسم قدرة خارقة على التعبير عما يختلج النفس الإنسانية، ولعل اللمسة الودود جزء لا يتجزأ من هذه اللغة؛ فهي وسيلة للتواصل الطبعي، وتعبير عن حاجة تفاعلية ماسة، ذلك أن الحق في ملامسة الآخر-وفق ما تفرضه ضوابط الشرع الحنيف- يعتمد على حاجة ضرورية لإقامة العلاقة مع الآخرين.

إن المتأمل في مظاهر التواصل غير اللفظي في ثنايا الخطاب النبوي الشريف يلاحظ الآتي:

- وضع آليات تتحقق معها التفاعلات الفردية والجماعية داخل هذه البيئة.
- رسمَ مقاصد تسعى إلى إعادة الاعتبار للإنسان من خلال تحقيق رغباته واستيفاء راحته النفسية والبدنية والعقلية.
- السموَّ بالإنسان بشكل يجعل منه كائنًا اجتماعيًّا مكرَّمًا.
- السعي إلى المشاركة الإيجابية له وتنمية قدراته التواصلية مع أفراد بيئته.
- تبادلَ المصالح والمنافع معهم وفق ما سطرته الحكمة الإلهية من خلق الإنسان.

- الارتقاء بالإنسان، وتجنيبَه كل ما من شأنه أن يؤذي جسده، والعناية بكل ما يحقق سعادته الروحية والمادية.

- الكشف عن حضور أشكال تواصلية متنوعة، توحي بسلوك نبوي منظم.

- تشكيل نسقًا متكاملًا من العلامات التي تحمل دلالات عميقة، وتحتاج إلى تسليط الضوء عليها في ضوء ما توصلت إليه المباحث الخاصة في علم النفس.

- أن لغة الجسد لغة مؤثرة في نفس المخاطَب، وهي مهارة مهمة ينبغي للمتحدث أن يتقنها.

- إن لحركة الجسم قيامًا أو قعودًا أثرًا بالغًا في إيصال الفكرة وتفعيلها في نفس المخاطَب، وتعابير الوجه لها أثرها في نفس المخاطَب، فالكلمة ليست لفظة مجردة تؤخذ بمنأى عن هيئة قائلها، فإن المخاطَب يقرأ في تقاسيم وجه المتحدِث ما يستنتج منه رضاه عنه أو غضبه منه، ورسول الله ﷺ ما ترك سبيلًا إلى نفوس الناس إلا سلكه ما لم يكن إثمًا، فإذا كان كذلك كان أبعد الناس عنه.

وقد جاء هذا المعنىٰ في بعض الأحاديث تطبيقًا لهذا المعنىٰ العظيم:

فعن عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي[1] رضي الله عنه قَالَ: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أكثر**

(١) عَبْد اللهِ بْن الحارث بْن جزء بْن عَبْد اللهِ بن معد يكرب بْن عمرو بْن عسم، وقيل: عصم بْن

تبسمًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

- في هذا الحديث بيان للمنهج النبوي في مقابلة الناس، فالابتسامة لها أثر عظيم في كسر حواجز الخوف.

- البشاشة هي طلاقة الوجه عند اللقاء، تبدو في ملامح الوجه وبسمات الشفاه، كما تبدو في التبسط والتحبب، ومحاولة التقارب وروعة الاستهلال، ومن فقد البشاشة فقد افتقد كسبًا مهمًّا في أول لقاء، والعكس صحيح، فعُبوس الوجه يسبِّب الضيق، ويُشعِر الآخر بعدم الرغبة في اللقاء، والابتسامة وحدها عطاءٌ، وتدل على نفس قادرة على البذل للآخرين، والاهتمام بالناس، والفرح لفرحهم، ومشاركتهم في كل أحوالهم، وهي أول العطاء، وهي المحددة لما بعدها.

- إن هذا الصحابي رضي الله عنه ليس من الصحابة الذين له ذكر كثير عند الناس

=

عمرو بْن عريج بْن عمرو بْن زبيد الزبيدي رضي الله عنه، وزبيد من مذحج من اليمن، سكن مصر، وتوفي بها بعد أن عمَّر طويلًا، وكانت وفاته بعد الثمانين، وقيل: سنة ثمان أو سبع وثمانين، وقيل: سنة خمس وثمانين، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (١٤٩١) (٣/ ٨٨٣).

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم (١٧٧١٣)، (٢٩/ ٢٥٢)، وقال محقق «المسند» شعيب الأرنؤوط: حديث حسن، والترمذي، باب «في بشاشة النبي ﷺ»، حديث رقم (٣٦٤١)، (٥/ ٦٠١)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، باب «فصل في طلاقة الوجه وحسن البشر»، حديث رقم (٨٠٤٧)، (٦/ ٢٥١) وقال الألباني: صحيح، ينظر: «مختصر الشمائل» (١٩٤)، و«مشكاة المصابيح» (٣/ ١٦٢٠) رقم (٥٨٢٩).

كالذين صحبوا النبي ﷺ فترة طويلة، ولم تكن له أعمال كبيرة منوطة به في عهد النبوة، ولم يكن من السابقين الأوائل حتى نقول: إنه يرحب به، ويكافئه على أعماله، فكيف بمَن ضحَّى وقاتل وجُرح وعُذِّب وتحمل؟ لقد كان نبينا محمد ﷺ يبتسم للجميع دون استثناء، ويُفهم منه أنه كان دائمًا مع الناس مبتسمًا.

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكْتُ، قَالَ: «**مَا لَكَ**»؟ قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا**»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**»، قَالَ: لا، فَقَالَ: «**فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا**»، قَالَ: لاَ، قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ - وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ- قَالَ : «**أَيْنَ السَّائِلُ**»؟ فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: «**خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ**»، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟! فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا -يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ**»[1].

في هذا الحديث مراعاة حقيقية جامعة بين الكلمة، والهيئة تمثلت في:

١ - تدرج النبي ﷺ مع السائل من الأعلى إلى الأدنى.

---

(١) أخرجه البخاري، باب «ما يُعطى في الكفارة»، حديث رقم (١٩٣٦)، (٢/ ٥٧٥)، ومسلم، باب «تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان»، حديث (١١١١)، (٢/ ٧٨١).

٢- أن النبي ﷺ حمل همَّ هذا السائل تخفيفًا له ومراعاة لفاقته.

٣- الأمانة في النقل«خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ».

٤- الأمانة في الأخذ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ ؟! فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا - يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي.

٥ - مشاركة الرجل في حل موضوعه «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ».

٧ - ختم الأمر بابتسامة بثت الطمأنينة في نفس السائل.

٧- إن الرجل قد أذنب ذنبًا عظيمًا، وجامع زوجته في نهار رمضان وهو مدرك للحُكْم، ويعلم أن ذلك يوجب كفارة، وبتعبير الرجل فإنه هلك؛ لأنه أتى منكرًا عظيمًا، لكن رسول الله ﷺ برحمته الشاملة لم يبدُ عليه أي انفعال أو غضب، إنما أخذ يُعدد عليه وسائل الكفارة، والتي أبدى الرجل عجزه عن فعل أيٍ منها، فلم ينزعج رسول الله؛ بل جاء له بتمر صدقةٍ أتاه، وقال له: خذ هذا التمر وكفِّر به عن ذنبك، وأنفقه على فقير، فقال الرجل قولًا عجيبًا، لقد قال: إنه أفقر أهل المدينة، ولذلك فهو يطمع أن يأخذ هو التمر! ماذا كان رد فعل رسول الله ﷺ على أن الرجل لا يريد أن يُكفِّر عن ذنبه بأي طرق الكفارة؟! وماذا كان رد فعله عندما عرض الرجل أن يأخذ هو -وهو المخطئ المذنب- تمر الصدقة له ولأهله؟! إنه ضحك ﷺ حتى بدت أنيابه! ثم أعطاه التمر، وقال: «أطعمه أهلك»! هذا هو رسول الله ﷺ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ [١] قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»[٢].

ففي هذا الحديث دلالة على أن النبي ﷺ كان يستخدم لغة الجسد في التعبير عما يريد قوله.

وَعنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قال: «صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ[٣]، وَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَثُوبَ النَّاسُ لِصَلاَةِ الْعِشَاءِ، فَجَاءَ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، رَافِعًا إِصْبَعَهُ هَكَذَا، وَعَقَدَ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ إِلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**أَبْشِرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا رَبُّكُمْ ﷻ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ،**

---

(١) جَابِر بْن عَبْد اللهِ بْن عمرو بْن حرام بْن كعب بْن غنم بْن كعب بْن سَلِمة أنصاري من بني سَلِمةَ، يكنى أبا عَبْد الله، وقيل: أَبُو عَبْد الرحمن، والأول أصح، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي، عمي في آخر عمره، وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد العقبة، توفي سنة أربع وسبعين، وقيل: سنة سبع وسبعين، وكان عمره أربعًا وتسعين سنة، وصلى عليه أبان بْن عثمان، وكان أمير المدينة، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٢٨٦) (١/ ٢١٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب «الجمعة» باب «تخفيف الصلاة والخطبة»، حديث رقم (٨٦٧)، (٢/ ٥٩٢).

(٣) «فعقب من عقب» بالتشديد، أي: جلس منتظرًا للعشاء، والتعقيب: هو الجلوس في مصلاه بعدما يفرغ من الصلاة.

يَقُولُ: يَا مَلاَئِكَتِي انْظُرُوا إِلَىٰ عِبَادِي، أَدَّوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ ينتظرون أُخْرَىٰ»[1].

يُفهم من هذا الحديث الآتي:

- وصفًا عجيبًا لهيئته ﷺ لم يرها الصحابة رضي الله عنهم قبل ذلك، رأوه في هيئة خافوا عليه ﷺ في بادئ الأمر.

- مبادرة النبي ﷺ لهم بالبشرى ليزيل عنهم ما يُفزعهم.

- لم يحتمل النبي ﷺ تأخير هذه البشرى عنهم.

- أتاهم بصورة تشُد الأنظار وتوجه الإنتباه فتزيل هذه الصورة حيرتهم، وتنزل البشرى عليهم بردًا وسلامًا.

الصحابة رضي الله عنهم لا يُغفلون هذه التعابير، بل يقرأونها ويفسرونها، ويعطونها معنًى يوافق المراد، فيجعلون السامع للحديث كأنه معهم في المجلس.

---

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم (٦٧٥١)، (٢/ ١٨٧)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده...= = صحيح على شرط مسلم، والطبراني في «المعجم الكبير»، حديث رقم (١٤٥٠٢)، (١٣/ ٥٨٨)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء»، (٦/ ٥٤)، والحديث إسناده صحيح.

المطلب الثالث: توجيه النبي ﷺ أمته إلى كيفية التعامل مع الناس

قال الله ﷻ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٨٣].

أَيْ: كَلِّمُوهُمْ طَيِّبًا، ولينُوا لَهُمْ جَانِبًا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ.

كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ[(١)]: «يأمُر بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَر، وَيَحْلُمُ، وَيَعْفُو، وَيَصْفَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ، وَهُوَ كُلُّ خُلُق حَسَنٍ رَضِيَهُ اللهُ ﷻ» [(٢)].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ[(٣)] ﷺ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شيئًا،**

---

(١) الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت، ولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، سيد من سادات التابعين وكبرائهم، توفي سنة (١١٠هـ)، ينظر: «الثقات» للعجلي، ترجمة رقم (٢٧٥) (١/ ١١٣)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي، ترجمة رقم (١٢٢) (١/ ١٦١).

(٢) «تفسير ابن كثير»، (١/ ٣١٧).

(٣) جندب بْن جنادة بْن سفيان بْن عبيد بْن حرام بْن غفار بْن مليل بْن ضمرة بْن بكر بْن عبد مناة بْن كنانة بْن خزيمة بْن مدركة بْن إلياس بْن مضر وقيل غير ذلك، أَبُو ذر الغفاري، أسلم والنبي ﷺ بمكة أول الإسلام، فكان رابع أربعة، وقيل: خامس خمسة، وقد اختلف في اسمه ونسبه اختلافًا كثيرًا، وهو أول من حيَّا رَسُول اللهِ ﷺ بتحية الإسلام، ولما أسلم رجع إِلَى بلاد قومه، فأقام بها حتى هاجر النَّبِيُّ ﷺ فأتاه بالمدينة بعد ما ذهبت بدر، وأُحد، والخَندق، وصحبه إِلَى أن مات، تُوُفِّيَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ

وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ[١]»[٢].

والداعية الذي يتعرض إلىٰ حالات محرجة، ومواقف صعبة، يحتاج فيها إلىٰ الآتي:

- حسن تصرف، وموازنة بين المصالح والمفاسد.

- نظر ثاقب في عواقب الأمور بحيث يكونُ قريبًا من هدي إمام الدعاة ﷺ مطبقًا ما جاءت به السنة النبوية المطهرة من توجيهات نافعة وإرشادات، وما عليه الصحابة رضي الله عنهم، فيكون ذلك منهجًا له في الدعوة إلى الله ﷻ، فيعم الخير للداعي والمدعو.

وفي الحديث: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ بعث مُعَاذًا[٣] وَأَبَا مُوسَى[١] رضي الله عنهما إِلَى الْيَمَنِ قَالَ:

=

وَثَلاثِينَ بِالرَّبَذَةِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، ينظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير ترجمة رقم (٨٠٠) (١/ ٥٦٢).

(١) وتأتي كلمة: «طَلْقٍ» على معاني هي: «بِوَجْهٍ طَلْقٍ» منبسط غير متجهم، ومنها: طلَق المسجونُ: تحرَّرَ من قيده، وَيُقَال: طلقت الْمَرْأَة بِضَم الطَّاء وَكسر اللَّام مُخَفّفَة من الْولادَة، وَمِنْه ضربهَا الطلق إِذا أَصَابَهَا، وَطلقت بِفَتْح اللَّام وَضمّهَا من الطَّلَاق، طَلْقُ اللِّسَانِ أَيْ مَاضي القَول سَرِيع النُّطْق.

(٢) أخرجه مسلم، باب «استحباب طلاقة الوجه»، حديث رقم (٢٦٢٦)، (٤/ ٢٠٢٦).

(٣) معاذ بْن جبل بْن عَمْرو بْن أوس بْن عائذ بْن عدي بْن كَعْب بْن عمرو بن أدي بْن سَعْد ابْن علي بْن أَسَد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج، الأنصاري، الخزرجي، ثُمَّ الْجُشَمِيّ، يكنى أَبَا عَبْد الرَّحْمَنِ، وَهُوَ أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار،

«**يَسِّرَا وَلَا تُعسِّرَا وَبَشِّرَا ولا تنفرا وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**»(٢).

وحديث أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»(٣).

في هذين الحديثين نستشف بعض الخواطر الحديثية التربوية، وهي كالآتي:

١- الطبيعة البشرية في الإختلاف قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩].

=

الإمام المقدّم في علم الحلال والحرام، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة أو التي بعدها، وهو قول الأكثر، وعاش أربعًا وثلاثين سنة، وقيل غير ذلك، ينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٢٤١٦) (٣/ ١٤٠٢).

(١) عَبْدُ اللهِ بنُ قَيْسِ بن سُلَيْمِ بنِ حَضَّارِ بنِ حَرْبٍ، الإِمَامُ الكَبِيْرُ، صَاحِبِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَبُو مُوْسَى الأَشْعَرِيُّ التَّمِيْمِيُّ الفَقِيْهُ المُقْرِئُ، مات سنة خمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة ثلاث وخمسين، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»...= = لابن عبد البر، ترجمة رقم (١٦٣٩) (٣/ ٩٧٩).

(٢) أخرجه البخاري، باب «ما يكره من التنازع»، حديث رقم (٤٣٤١)، (٣/ ١٣١١)، ومسلم، باب «في الأمر بالتيسير»، حديث رقم (١٧٣٣)، (٣/ ١٣٥٩).

(٣) أخرجه البخاري، باب «قول النبي ﷺ يسروا ولا تعسروا»، حديث رقم (٦١٢٥)، (٤/ ١٩٣٠)، ومسلم، باب «الأمر بالتيسير وترك التنفير»، حديث رقم (١٧٣٤)، (٣/ ١٣٥٩).

٢- انقسام الناس بين التيسير والتعسير.

٣- بيَّنَ في هذه الألفاظ بين فعل الشيء وبين فعل ضده.

٤- لو اقتصر على «يَسِّرَا أو يَسِّرُوا» لصدق ذلك على من يسَّر مرة أو مرات، وعسَّر في معظم الحالات.

٥- وعندما قال: «وَلَا تُعَسِّرَا أو وَلَا تُعَسِّرَا» انتفى التعسير في جميع الأحوال، ومن جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب.

٦- وكذا يقال فِي «يَسِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»؛ لأنهما قد يتطاوعان في وقت ويختلفان في وقت، وقد يتطاوعان في شيءٍ ويختلفان في شيءٍ.

٧- وفيهما الحث على التبشير بفضل الله ﷻ وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير.

٨- اليسر سمة من سمات هذا الدين العظيم قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩]، وقول الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وكذلك النبي ﷺ اتخذها السِّمَة له منهجًا، فما خُيِّرَ ﷺ بين أمرين إلا أختار أيسرهما كما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ (مَا لَمْ يَكُنْ

إِثْمٌ) فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ وَاللهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ (فينتقِمَ) لِلهِ»[1].

ففي هذا الحديث تبين أن الأصل اتخاذ (اليسر) الذي هو فوقه (العسر)، ودونه (التفريط).

٩- أيضًا من القواعد الأصولية (المشقة تجلب التيسير)؛ فالأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرجٌ على المكلف، ومشقة في نفسه، أو ماله؛ فالشريعة تخفِّف في تلك الأحكام.

١٠- أيضًا أنها جاءت في حديث مسلم بالمثنى «يسرا ولا تعسرا»، وفي المسند بالجمع «يسروا ولا تعسروا» فهي نصيحة لجميع المسلمين عامة ولهذين الصحابيين الجليلين بصفة خاصة لمعرفته ﷺ بحال المخاطَبين وهما معاذ وأبو موسى رضي الله عنهما وكذلك معرفته ﷺ بحال المدعويين وهم أهل اليمن.

١١- وفيهما الحث على اليسر والنهي عن العسر.

١٢- وفيهما تأليف قلوب حديثي العهد بالإسلام وعدم التشديد عليهم، ويدخل فيه من قارب البلوغ من الصبيان، ومن تاب من الذنوب والآثام.

١٣- وفيهما التلطف والتدرج معهم في أنواع الطاعة.

---

(١) أخرجه البخاري، باب «إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله» حديث رقم (٦٧٨٦) (٤/ ٢١١٨).

١٤- إذا فُعل ذلك بالمدعوين سهُل عليهم قبوله والعمل به، وكانت عاقبته طيبة.

١٥- ومتى فُعل غير ذلك من التعسير عليهم وتنفيرهم كانت عاقبته خُسرًا.

١٦- وفيه وصية الإمام للولاة وإن كانوا أهل فضل وصلاح.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: المراد تأليف مَنْ قرُب إسلامه، وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدرج؛ لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلًا حبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالبًا الازدياد[1].

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ[2] رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي وَاللهِ لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فِيهَا قَالَ فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ، فَلْيُوجِزْ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ،**

---

(١) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر، (١/ ١٦٣).

(٢) عُقْبَةُ بنُ عَمْرِو بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ أُسَيْرَةَ بنِ عُسَيْرَةَ الأَنْصَارِيُّ وَقِيْلَ: يُسَيْرَةُ بنُ عُسَيْرَةَ - بِضَمِّهِمَا- بنِ عَطِيَّةَ بنِ خُدَارَةَ بنِ عَوْفٍ بنِ الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ وَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا عَلَى الصَّحِيْحِ، وَإِنَّمَا نَزَلَ مَاءً بِبَدْرٍ فَشُهِرَ بِذَلِكَ وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَيْعَةَ العَقَبَةِ، وَكَانَ شَابًّا مِنْ أَقْرَانِ جَابِرٍ فِي السِّنِّ رَوَى أَحَادِيْثَ كَثِيْرَةً وَهُوَ مَعْدُوْدٌ فِي عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ نَزَلَ الكُوْفَةَ مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلاَثِيْنَ وَقِيلَ: سَنَةَ أَرْبَعِيْنَ ينظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ترجمة رقم (٣٧١٧) (٤/ ٥٥).

وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»[١].

ومن ثنايا هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- في الحديث راعى النبي ﷺ في أعظم عبادة عملية الحالة النفسية للكبير، والضعيف، وذي الحاجة، لأن تنفير مثل هؤلاء موجب لهجر بيوت الله ومن صلى -وهذه حاله- فأنى يحصل له المقصود الأعظم من الصلاة وهو الخشوع؟

٢- قوله: «مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فِيهَا» من أجل فلان، يعني: الإمام، وسماه ولكن الراوي لم يذكره؛ لأن ذلك مما يحسُن ستره؛ لأن ذلك وقع في مقام الشكاية، فبعض شُرَّاح الحديث قال: هو حزم بن أبيّ بن كعب، وبعضهم يقول: حازم، وبعضهم يقول: هو مليكة، وبعضهم يقول: هو سلم بن علي، وبعضهم يقول: حرام بن ملحان رضي الله عنهم، إلى غير ذلك من الأقوال، وتعيينه لا فائدة فيه، لكن نبَّه الحافظ ابن حجر رحمه الله: إلى أنه ليس معاذ بن جبل رضي الله عنه فتلك واقعة أخرى.

٣- فيه الحث على عدم التنفير في الصلاة والعبادة ومراعاة حال الناس الذين خلفه.

---

(١) أخرجه البخاري، باب «هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان» حديث رقم (٧١٥٩)، (٤/ ٢٢٣٦)، ومسلم، باب «أَمْرِ الأَئِمَّةِ بِتَخْفِيفِ الصَّلَاةِ»، حديث رقم (٤٦٦)، (١/ ٣٤٠).

٤- وفيه أن الناس لم يكونوا ينفرون من صلاة النبيِّ ﷺ ولا ممن يصلي بقدر صلاته وانما ينفرون ممن يزيدون في الطول على صلاته فهذا الذي يُنَفِّر.

٥- وقوله ﷺ: «**فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ، فَلْيُوجِزْ**» ما المراد به؟ إلى أي حد هذا الإيجاز؟ يعني مثلاً معاذ بن جبل رضي الله عنه ماذا قرأ في صلاة العشاء؟ قرأ البقرة أو نحو ذلك، فالأمر كما يقول ابن القيم رحمه الله[1]: كثير من العامة يَبقى هذا الحديث في يده عصا يبتدرون به الإمام، فإذا قرأ بهم كقراءة رسول الله ﷺ أو حاول اتباع السنة في الصلاة والنبي ﷺ قال: «**وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[2]، ابتدروه بهذا الحديث: «**إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ، فَلْيُوجِزْ**»، وكان عصا بأيدي العامة، وذكر ابن القيم رحمه الله: أن القصد والاعتدال في الصلاة هو صلاته ﷺ، فماذا كان يقرأ ﷺ في صلاة الفجر مثلًا؟ يقرأ طوال المفصل، في صلاة الظهر نحن لو قرأنا سبح اسم ربك الأعلى يبدأ الناس يتنحنحون، وكان النبي ﷺ في الركعة الأولى في صلاة الظهر يصلي بهم فيذهب الذاهب إلى البقيع يقضي حاجته ثم يرجع يتوضأ ويدرك

---

(١) مُحَمَّد بن أبي بكر بن أَيُّوب بن سعد بن حريز الزرعي الدِّمَشْقِي شمس الدّين ابْن قيم الجوزية الْحَنْبَلِيّ ولد سنة (٦٩١)، وَمَات فِي ثَالِث عشر شهر رَجَب سنة (٧٥١) وَكَانَت جنَازَته حافلة جدًّا، ينظر: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (٥/ ١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري، باب «رحمة الناس والبهائم»، حديث رقم (٦٠٠٨) (٤/ ١٩٠١).

الركعة الأولى هذا في صلاة الظهر[١]، وكانت صلاته كما وُصفت إلى تخفيف،هذا يعتبر تخفيفًا، فالمقصود بإذا صلى أحدكم بالناس فليوجز أنه لا يقرأ بهم قدرًا يشق عليهم، مع أن النبي ﷺ قرأ في المغرب الأعراف كاملة، ولكن لم يكن ذلك هديه ﷺ المستمر أو الغالب، فيبقى أن الإنسان يلاحظ هدي النبي ﷺ ويحاول أن يقتدي به، أو أن يقاربه، فالمقصود أن يُعرف المراد بقوله: «**إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ، فَلْيُوجِزْ**» ما المراد به؟ المقصود أن تكون صلاته بحيث لا تشق على الناس، وكان النبي ﷺ أرحم الأمة بالأمة، ولربما أراد أن يقرأ السورة الطويلة فيسمع بكاء الصبي فيوجز من أجل ما يعلم من اشتغال قلب أم هذا الصبي عليه.

٦- أما في صلاة العشاء فقد وجَّه النبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل رضي الله عنه: اقْرَأْ ﴿**وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا**﴾وَ﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى**﴾، وَنَحْوَهَا (وَنَحْوَهُمَا)، وهي واقعة أخرى منفصلة عن الواقعة التي في حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه، ولكن مؤداهما واحد، وهو التخفيف، والتوجيه لمعاذ رضي الله عنه ولكل مَن صلَّى بالناس من أمة محمد ﷺ.

---

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «لَقَدْ كَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ تُقَامُ فَيَذْهَبُ الذَّاهِبُ إِلَى الْبَقِيعِ فَيَقْضِي حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَأْتِي وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى مِمَّا يُطَوِّلُهَا»، أخرجه مسلم، باب «القراءة في الظهر والعصر» حديث رقم (٤٥٤) (١/ ٣٣٥).

٧- وفيه حثُّ مَن صلى بالناس أن يرفق بهم، ولا يطيل عليهم الصلاة.

٨- وفيه جواز الغضب في التعليم للمصلحة إذا لم يترتب على ذلك مفسدة.

٩- وفيه استحباب التخفيف مع الإِتمام، وليس فيه حجة للنقارين، فإن التخفيف أمر نسبي راجع إلى فعل النبي ﷺ.

المطلب الرابع: ترغيبه ﷺ أمته في إدخال السرور على بعضهم

فنُّ إدخال السرور على قلوب الناس، وإسعادهم، وإدخال البِشر عليهم، ورسم البسمة على الوجوه، والبهجة في النفوس، أمر لا يدركه إلا الأنقياء من عباد الله، والأصفياء منهم، ولا تستطيعه إلا النفوس الكبيرة العظيمة، ولا يقوى عليه إلا الكبار حقًّا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نسَائه، فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَضُمُّ**» **أَوْ** «**يُضِيفُ هَذَا**»؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا (كَأَنَّهُمَا) يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا**» فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩][1].

---

(١) أخرجه البخاري، باب قول الله ﷻ «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»، حديث رقم (٣٧٩٨) (٣/ ١١٦٢)، ومسلم، باب «إكرام الضيف وفضل إيثاره»، حديث رقم (٢٠٥٤) (٣/ ١٦٢٤).

إنها سعادة غامرة تلك التي يستشعرها المرء عندما يُسعِد الآخرين أو يشارك في إسعادهم أو تخفيف آلامهم سعادة لا تشعر بها إلا النفوس الطاهرة النقية، التي رجاؤها دوما وجه ربها ﷻ وسعيها دومًا هو في طرقات الخير المضيئة.

إن الحياة كدٌّ وتعبٌ ومشقة وصعاب ومشكلات واختبارات وآلام، وما يصفو منها ما يلبث أن يتكدر، وليس فيها من أوقات صفاء رائق إلا أوقات العبادة المخلصة لرب العالمين ﷻ، والناس كل الناس بحاجة إلى يد حانية، تربت على أكتافهم في أوقات المصائب، وتقوِّم انكسارهم في أوقات الآلام، وتبلل ريقهم بماء رقراق عند جفاف الحلوق.

ومن طالت به خبرته بالحياة علم أن أعلى الناس فيها قدرًا هم الناصحون لغيرهم بالعلم النافع والمفرجون كُرَب الناس والميسرون على المعسرين والباذلون جهدهم لإسعاد غيرهم.

وانظر إلىٰ هذا الموقف الرائع في هذا الحديث يوم استضاف أحد أصحاب النبي ﷺ ضيفًا وأراد أن يكرمه ويدخل السرور عليه وكان طعامه قليلًا، فأطفأ المصباح وتصنع أنه يأكل حتى انتهى ضيفه من طعامه وشبع، وإذا بالقرآن ينزل ليسجل حادثة هي قليلة في أعين الناس كبيرة في ميزان المروءات والمبادىء والمعاني لذا رفع الله درجتها فقال ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، إنهم فضلوا شبع بطن ضيفهم على شبع بطونهم، وقدموا سرور

صاحبهم المسلم على سرور ذواتهم، وإن كانت ذواتهم قد نعمت بنوع آخر من السرور هو أعلى وأكبر.

وأيضًا يدل الحديث على ما كان عليه الأنصار ﷺ من الجود والسخاء والبذل والعطاء، وإكرام الضيف، وإيثاره على أنفسهم، وأولادهم في حالة الضيق والشدة والفقر، وبذل كل ما يملكونه لِإخوانهم المسلمين حتى قوتهم، وقوت عيالهم وصبيانهم.

وَعَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

إن مجتمعاتنا تلك -التي تعيش الآن في صراعات متشابكة على المصالح الشخصية- لفقيرة إلى فهم ذلك المعنى العظيم، الذي يصرخ فينا أن سارعوا إلى الرفق بالناس وتفريج الكرب عنهم وتخفيف آلامهم وإطعام جائعهم وقضاء الدين عن مدينهم، وإهداء السرور لحزينهم، ويوم يتعلم الدعاة إلى الله جل وعلا معنى إدخال السرور على المسلم ويطبقون مقتضاه سيضربون المثال

(١) أخرجه البخاري، باب «لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسلمه»، حديث رقم (٢٤٤٢) (٢/ ٧٣٢)، ومسلم، باب «تحريم الظلم»، حديث رقم (٢٥٨٠)، (٤/ ١٩٩٦).

الحي لمجتمع افتقدناه عبر سنين طويله.

وما أروع هؤلاء الصالحين ذوي النفوس الطاهرة الذين يسعون دومًا في إدخال السرور على إخوانهم، فيسألون عن أحوالهم ويسارعون في نجدة ملهوفهم، ومداواة مريضهم وحل مشكلاتهم مهما كلفهم ذلك، تعبًا في أجسادهم أو بذلًا من أموالهم أو شغلًا في أوقاتهم، رجاء بسمة سرور ورضا من هذا الحزين بعد زوال حزنه، فيسرها الصالح في نفسه ليجدها في صالحات أعماله يوم اللقاء.

ولكم بذل نبينا الحبيب ﷺ من نفسه الجهد رجاء نفع الناس وإسعادهم في الدنيا والآخرة.

ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ[١]، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ ﵂: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ قَاعِدٌ؟ قَالَتْ: «نَعَمْ، بَعْدَ مَا حَطَمَهُ[٢] النَّاسُ»[٣].

---

(١) عَبد الله بن شقيق العقيلي أبو عَبْد الرحمن، ويُقال: أبو محمد البَصْرِيّ، من بني عقيل بن كعب بن عامر بن ربيعة بْن عامر بْن صعصعة، توفي فِي ولاية الحجاج بن يُوسُفَ على العراق سنة ثمان ومئة، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٣٣٥٣) (٥/ ٣٩٥).

(٢) يقال: حطم فلانا أهله إذا كبر فيهم كأنهم بما حمّلوه من أثقالهم صيروه شيخًا محطومًا، ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، (١/ ٤٠٣).

(٣) أخرجه مسلم، باب «جَوَازِ النَّافِلَةِ قَائِمًا وَقَاعِدًا، وَفِعْلِ بَعْضِ الرَّكْعَةِ قَائِمًا وَبَعْضِهَا قَاعِدًا»، حديث رقم (٧٣٢)، (١/ ٥٠٦).

والمسلم لن يُعدم طريقًا لإدخال السرور على أخيه المسلم، في تبشيره بالبشرى تارة، أو إخباره بأخبار الخير التي ينتظرها تارة، أو بقضاء دينه، أو بالهدية، أو بإخباره أنه يحبه في الله ﷻ، أو بإكرام أهله وولده وصحبه، أوبتعليمه العلم النافع له، أو بتوقيره بين الناس، أو بالمسارعة في محباته دومًا، وبأي حال.

فجودوا -يا رعاكم الله- لإخوانكم بأنواع البشر والسرور، واهنؤوا بعد ذلك بأنواع الأجر والحبور.

المطلب الخامس: تحذيره ﷺ أمته من المساس بمشاعر بعضهم

وفيه أنموذجان:

الأنموذج الأول:

إن ديننا الإسلامي الحنيف دينٌ قامت دعائمُه الأولى على أساس أخلاقي قويم؛ بل إن الهدف الأول والأسمى من دعوة نبينا محمد ﷺ هو تتميم ذلك البنيان، وترسيخ ذلك الأساس، والسمو به إلى ذروة تمامه وكماله، ولقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثلة في حسن مراعاة مشاعر الناس وأحاسيسهم.

ولقد جاء الإسلام لإسعاد الناس وصلاحهم، وليس لقهرهم وإكراههم، والمسلم إنسان حساس يراعي مشاعر وأحاسيس جميع الناس، فهو يتمتع بدرجة عالية من الإحساس والتأثر، وهو صاحب قلبٍ حيّ نابض، وينعكس ذلك كله على سلوكه وتصرفاته. رضي الله عنهم

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما[1] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه حِينَ

(١) عَبْد الله بْن عَبَّاس بْن عَبْد المطلب بْن هاشم بْن عَبْد مناف، أَبُو الْعَبَّاس الْقُرَشِيّ الهاشمي، ابْنُ عم رَسُول الله ﷺ، كني بابنه الْعَبَّاس، وهو أكبر ولده، وكان يسمى البحر؛ لسعة علمه، ويسمى حبر الأمة، ولد والنبي ﷺ وأهل بيته بالشِّعب من مكَّة، فأُتي بِهِ النَّبِيّ ﷺ فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، وهو من المُكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ حيث روى (١٦٦٠) حديثًا، وأحد العبادلة، توفي سنة ثمان وستين بالطائف، وهو ابْنُ سبعين سنة، وقيل: إحدى وسبعين سنة، وقيل: مات سنة سبعين، ينظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير، ترجمة رقم (٣٠٣٧) (٣/ ٢٩١).

بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ (فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا) وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»(١).

أَمَّا الْكَرَائِمُ: فَجَمْعُ كَرِيمَةٍ.

قَالَ صَاحِبُ «الْمَطَالِعِ»: هِيَ جَامِعَةُ الْكَمَالِ الْمُمْكِنِ فِي حَقِّهَا مِنْ غَزَارَةِ لَبَنٍ وَجَمَالِ صُورَةٍ أَوْ كَثْرَةِ لَحْمٍ أَوْ صُوفٍ(٢).

قَالَ ابن قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ(٣): وَالْكَرَائِمُ جَمْعُ كَرِيمَةٍ أَيْ: نَفِيسَةٍ، فَفِيهِ تَرْكُ أَخْذِ خِيَارِ الْمَالِ.

وَالنُّكْتَةُ فِيهِ: أَنَّ الزَّكَاةَ لِمُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ فَلَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْإِجْحَافَ بِمَالِ الْأَغْنِيَاءِ إِلَّا إِنْ رَضَوْا بِذَلِكَ.

وَالنُّكْتَةُ فِي ذِكْرِهِ عَقِبَ الْمَنْعِ مِنْ أَخْذِ الْكَرَائِمِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ أَخْذَهَا ظُلْمٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَطَفَ «وَاتَّقِ» عَلَى عَامِلِ «إِيَّاكَ» الْمَحْذُوفِ وُجُوبًا فَالتَّقْدِيرُ:

---

(١) أخرجه البخاري، باب «أَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَتُرَدَّ فِي الْفُقَرَاءِ حَيْثُ كَانُوا»، حديث رقم (١٤٩٦)، (١/ ٤٤٦)، ومسلم، باب «الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام»، حديث رقم (١٩)، (١/ ٥٠).

(٢) «المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج»، للنووي، (١/ ١٩٧).

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو مُحَمَّد الكاتب الدينوري، وقيل: الْمَرْوَزِيّ، مات في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وقيل: أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين ومائتين، ينظر: «تاريخ بغداد» للخطيب، ترجمة رقم (٥٢٦٢) (١١/ ٤١١).

اتَّقِ نَفْسَكَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلْكَرَائِمِ، وَأَشَارَ بِالْعَطْفِ إِلَى أَنَّ أَخْذَ الْكَرَائِمِ ظُلْمٌ، وَلَكِنَّهُ عَمَّمَ إِشَارَةً إِلَى التَّحَرُّزِ عَنِ الظُّلْمِ مُطْلَقًا[١].

وَقَالَ الطِّيبِيُّ[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ» تَذْيِيلٌ؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الظُّلْمِ الْخَاصِّ مِنْ أَخْذِ الْكَرَائِمِ وَعَلَى غَيْرِهِ[٣].

ومن خلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

٩- في الحديث التدرج في الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢- حذَّر النبي ﷺ معاذًا -والتحذير للأمة- مِنْ أخذِ كرائمِ أموال الأغنياء ومعلوم أن النفس البشرية -إلا من رحم الله- جُبِلت على حبِ المال، والحرص على جمعه، وعدم التفريط في القليل والرديء منه فكيف بالنفيس؟ وهذا أمرٌ لا يخفى على الهادي البشير والسراج المنير ﷺ فبيَّن أن في أخذِ كرائم أموالهم أذىً شديداً على أنفسهم، يشعرون فيه بالظلم والغبن، وفي هذه الحالة لا يتردد المتصَدِق من الدعاء على الساعي؛ فحذَّر ﷺ الساعي من دعوة المظلوم التي لا تُرد.

٣- الوصية للدُّعاة والوُلاة ولو كانوا مِن أولي العِلْم، فمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيّد العلماء، ومع ذلك أوصاه رسول الله ﷺ.

٤- أهمية مَعْرِفة الدَّاعي بأحوال الْمَدْعُوِّين، فإن ذلك أدْعَى لِقَبُول دعوته.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر،٣/ ٣٦٠.

(٢) الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي، من علماء الحديث والتفسير والبيان ت ٧٤٣هـ، ينظر: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر، ترجمة رقم (١٦١٣) (٢/ ١٨٥)، و«الأعلام» للزركلي، (٢/ ٢٥٦).

(٣) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر، (٣/ ٣٦٠).

٥- مراعاة النبي ﷺ شعور المتصَدِق.

٦- وفيه التنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذا الكرائم الإشارة إلى أن أخذها ظلم.

٧- حفظ الساعي من الهلاك في حال ظلم الناس.

٨- وفيه وصية الإمام لعامله فيما يحتاجه من أحكام.

٩- العلاقة بين اتقاء كرائم أموالهم واتقاء دعوة المظلوم.

لأن أخذ كرائم الأموال ونفائسها من الظلم، فإذا فعل الجابي ذلك فقد ظلم وعرَّض نفسه لدعوة المظلوم.

الأنموذج الثاني:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه [١] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَىٰ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «أجل أن ذلك يحزنه أي من أجل أن المناجاة دونه تزعجه وتسيئه».

---

(١) عبد الله بْن مَسْعُود بْن غافل- بالغين المنقوطة والفاء- ابْن حَبِيب بن شمخ بن فار بْن مخزوم بْن صاهلة بْن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، أبو عبد الرحمن بن الهذلي، حليف بني زهرة، كان إسلامه قديما فِي أول الإسلام فِي حين أسلم سَعِيد بْن زَيْد وزوجته فاطمة بِنْت الخطاب قبل إسلام عُمَر بزمان، وَكَانَ سبب إسلامه أَنَّهُ كَانَ يرعى غنمًا لعقبة بْن أَبِي معيط، فمر بِهِ رَسُول اللهِ ﷺ، وأخذ شاة حائلًا من تلك الغنم، فدرت عَلَيْهِ لبنا غزيرًا، شهد بدرًا والحديبية، وهاجر الهجرتين جميعًا؛ الأولى إِلَى أرض الحبشة، والهجرة الثانية من مكة إِلَى المدينة، فصلى القبلتين، مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع، وصلى عَلَيْهِ عُثْمَان وقيل ابن الزبير، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (١٦٥٩) (٣/ ٩٨٧).

(٢) أخرجه البخاري، باب «إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة»، حديث رقم (٦٢٩٠)، (٤/ ١٩٨٠)، ومسلم، كتاب «السلام» باب (تَحْرِيمِ مُنَاجَاةِ الِاثْنَيْنِ دُونَ الثَّالِثِ بِغَيْرِ رِضَاهُ»، حديث رقم (٢١٨٤)، (٤/ ١٧١٨).

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا قَالَ يُحْزِنُهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ نَجَوَاهُمَا إِنَّمَا هِيَ لِسُوءِ رَأْيِهِمَا فِيهِ أَوْ لِدَسِيسَةٍ غَائِلَةٍ لَهُ»[٢].

وللفائدة أنقل كلام الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ كاملًا حيث ذكر ضوابط المناجاة، وما يتعلق بها:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: ويؤخذ من التعليل استثناء صورة مما تقدم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من إطلاق الجواز إذا كانوا أربعة، وهي مما لو كان بين الواحد الباقي وبين الاثنين مقاطعة بسبب يعذران به أو أحدهما فإنه يصير في معنى المنفرد، وأرشد هذا التعليل إلى أن المناجي إذا كان ممن إذا خص أحدًا بمناجاته أحزن الباقين امتناع ذلك، إلا أن يكون في أمر مهم لا يقدح في الدين.

وقد نقل ابن بطال[٣] **عن أشهب عن مالك قال:** لا يتناجى ثلاثة دون واحد ولا عشرة؛ لأنه قد نُهِيَ أن يترك واحدًا قال: وهذا مستنبط من حديث الباب؛ لأن المعنى في ترك الجماعة للواحد كترك الاثنين للواحد، قال: وهذا من حسن

---

(١) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي الأديب، كان فقيهًا أديبًا محدثًا، له التصانيف البديعة، توفي بـ«بست» سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، ينظر: «التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» لابن نقطة (١/ ٢٥٤).

(٢) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر، (١١/ ٨٣).

(٣) ابن بطال: علي بن خلف بن عبد الملك، الشيخ الإمام العلامة، أبو الحسن بن اللجام القرطبي الأشعري، شارح صحيح البخاري في عدة مجلدات، توفي سنة (٤٤٩هـ)، ينظر: «الأعلام» للزركلي (٤/ ٢٨٥).

الأدب لئلا يتباغضوا ويتقاطعوا[١].

وقال المازري[٢] رحمه الله **ومن تبعه**: لا فرق في المعنى بين الاثنين والجماعة لوجود المعنى في حق الواحد[٣].

زاد القرطبي[٤] رحمه الله: بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأشد، فليكن المنع أولى، وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتصور فيه ذلك المعنى، فمهما وجد المعنى فيه ألحق به في الحكم[٥].

قال ابن بطال: وكلما كثر الجماعة مع الذي لا يناجى كان أبعد لحصول

---

(١) ينظر: «شرح ابن بطال لصحيح البخاري»، (٩/ ٦٤).

(٢) محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري، أبو عبد الله: محدث، من فقهاء المالكية. نسبته إلى (مازر) بجزيرة صقلّيّة، ووفاته بالمهدية سنة (٥٣٦هـ)، ينظر: «الأعلام» للزركلي (٦/ ٢٧٧).

(٣) «المعلم بفوائد الإمام مسلم» للمازري، (٣/ ٩٠).

(٤) أَحْمد بن عمر بن إِبْرَاهِيم بن عمر، الإِمَام أَبُو الْعَبَّاس الْأَنْصَارِيّ الْقُرْطُبِيّ الْمَالِكِي، الْمُحدث الْمدرس الشَّاهِد، نزيل الْإِسْكَنْدَرِيَّة، ولد بـ«قرطبة»، سنة ثَمَان وَسبعين وَسمع بهَا، وَقدم وَحدث بهَا وبـ«مصر»، وَاخْتصرَ الصَّحِيحَيْنِ، ثمَّ شرح «مُخْتَصر صَحِيح مُسلم» وَسَماهُ «الْمُفْهم»، وأتى فِيهِ بأَشْيَاء مفيدة، وَكَانَ بارعًا فِي الْفِقْه والعربية، عَارِفًا بِالْحَدِيثِ، وَتُوفِّي بـ«الإسكندرية» سنة سِتّ وَخمسين وست مائَة، وَكَانَ يعرف فِي بِلَاده بِـ«ابْن المزين»، وَله كتاب «كشف القناع عَن الوجد وَالسَّمَاع»، ينظر: «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين الصفدي (٧/ ١٧٣).

(٥) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي، (٥/ ٥٢٥).

الحزن ووجود التهمة، فيكون أولى.

واختلف فيما إذا انفرد جماعة بالتناجي دون جماعة، قال ابن التين: وحديثُ عائشة ﵂ في قصة فاطمة ﵂ دالٌّ على الجواز، وحديث ابن مسعود ﵁ في قصة الذي قال: «هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله»، والمراد منه قول ابن مسعود ﵁ : «فأتيته وهو في ملأ فساررته»، فإن في ذلك دلالة على أن المنع يرتفع إذا بقي جماعة لا يتأذون بالسرار.

ويستثنى من أصل الحكم ما إذا أذن من يبقى سواء كان واحدا أم أكثر للاثنين في التناجي دونه أو دونهم فإن المنع يرتفع لكونه حق من يبقى، وأما إذا انتجى اثنان ابتداء وثم ثالث كان بحيث لا يسمع كلامهما لو تكلما جهرا فأتى ليستمع عليهما فلا يجوز كما لو لم يكن حاضرا معهما أصلًا.

وقد أخرج المصنف في «الأدب المفرد» من رواية سعيد المقبري قال: مررت على ابن عمر ومعه رجل يتحدث فقمت إليهما، فلطم صدري وقال: «إذا وجدت اثنين يتحدثان فلا تقم معهما حتى تستأذنهما»، زاد أحمد في روايته من وجهٍ آخر عن سعيد وقال: أما سمعت أن النبي ﷺ قال: «**إذا تناجى اثنان فلا يدخل معهما غيرهما حتى يستأذنهما**».

قال ابن عبد البر ﵀: «لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجيين في حال تناجيهما».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ولا ينبغي لداخل القعود عندهما ولو تباعد عنهما إلا بإذنهما، لما افتتحا حديثهما سرًّا وليس عندهما أحد دل على أن مرادهما ألا يطلع أحد على كلامهما، ويتأكد ذلك إذا كان صوت أحدهما جهوريا لا يتأتى له إخفاء كلامه ممن حضره، وقد يكون لبعض الناس قوة فهم بحيث إذا سمع بعض الكلام استدل به على باقيه، فالمحافظة على ترك ما يؤذي المؤمن مطلوبة وإن تفاوتت المراتب.

وقد أخرج سفيان بن عيينة في «جامعه» عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عمر رضي الله عنهما في زمن الفتنة: ألا ترون القتل شيئًا ورسول الله ﷺ يقول، فذكر حديث الباب، وزاد في آخره: «تعظيما لحرمة المسلم»، وأظن هذه الزيادة من كلام ابن عمر استنبطها من الحديث فأدرجت في الخبر، والله أعلم.

قال النووي رحمه الله: النهي في الحديث للتحريم إذا كان بغير رضاه.

وقال في موضع آخر: إلا بإذنه أي صريحًا كان أو غير صريح، والإذن أخص من الرضا لأن الرضا قد يعلم بالقرينة فيكتفي بها عن التصريح، والرضا أخص من الإذن من وجه آخر؛ لأن الإذن قد يقع مع الإكراه ونحوه، والرضا لا يطلع على حقيقته، لكن الحكم لا يناط إلا بالإذن الدال على الرضا، وظاهر الإطلاق أنه لا فرق في ذلك بين الحضر والسفر وهو قول الجمهور.

وحكى الخطابي عن أبي عبيد بن حربويه أنه قال: هو مختص بالسفر في

الموضع الذي لا يأمن فيه الرجل على نفسه، فأما في الحضر وفي العمارة فلا بأس .

وحكىٰ عياض نحوه ولفظه، قيل: إن المراد بهذا الحديث السفر والمواضع التي لا يأمن فيها الرجل رفيقه أو لا يعرفه أو لا يثق به ويخشى منه، قال: وقد روى في ذلك أثر، وأشار بذلك إلى ما أخرجه أحمد من طريق أبي سالم الجيشاني عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**ولا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة أن يتناجىٰ اثنان دون صاحبهما**» الحديث، وفي سنده ابن لهيعة، وعلى تقدير ثبوته فتقييده بأرض الفلاة يتعلق بإحدى علتي النهي.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما قال «يحزنه»؛ لأنه إما أن يتوهم أن نجواهما إنما هي لسوء رأيهما فيه، أو أنهما يتفقان على غائلة تحصل له منهما.

قلت: فحديث الباب يتعلق بالمعنى الأول، وحديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يتعلق بالثاني؛ وعلى هذا المعنى عوَّل ابن حربويه وكأنه ما استحضر الحديث الأول.

قال عياض رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: قيل كان هذا في أول الإسلام، فلما فشا الإسلام وأمن

---

(١) الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، الحَافِظُ الأَوْحَدُ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، القَاضِي، أَبُو الفَضْلِ عِيَاضُ بنُ مُوْسَى بنِ عِيَاضِ بنِ عَمْرِو بنِ مُوْسَى بنِ عِيَاضٍ اليَحْصَبيُّ، الأَنْدَلُسِيُّ، ثُمَّ السَّبْتِيُّ، المَالِكِيُّ، وُلِدَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ، مَاتَ لَيْلَة الْجُمُعَة سنة أَربع وَأَرْبَعين وَخَمْسمِائة بمراكش، ينظر: «طبقات الحفاظ» للسيوطي ترجمة رقم (١٠٤٨) (١/ ٤٧٠).

الناس سقط هذا الحكم، وتعقبه القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بأن هذا تحكم وتخصيص لا دليل عليه.

وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: الخبر عام اللفظ والمعنى، والعلة الحزن وهي موجودة في السفر والحضر، فوجب أن يعمهما النهي جميعًا. اهـ[٢]

ومن ثنايا هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر :

١- أنَّ من أهم آداب الإسلام: احترام الآخرين وإكرامهم، وعدم الإساءة لهم وإيقاع الشك والحزن في نفوسهم.

٢- أنَّ العِلَّة من النهي مراعاة لشعور هذا الثالث، أو المنفرد عن المجموعة لئلا يَظُن أنهما يتآمران عليه، أو أنه دون مستوى الكلام قال ﷺ في تعليل هذا : «فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ».

٣- أن كل ما يحزن المسلم فإنه يُنهى عنه، وكل ما يسره يؤمر به وإن لم يؤمر به لعينه، لكنه مأمور به لجنسه، فكل ما يسر المؤمن مأمور به كما أنه يُنهى

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي القاضي، فقيه حافظ عالم متفن أصولي محدث مشهور أديب رائق الشعر رئيس وقته، رحل في أحواز الخمسمائة، وصحبه ابنه، وأقام بالعراق مدة وبالشام ومصر وتفقه هناك، وروى فأكثر، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ بـ«فاس» من مراكش سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ينظر: «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» (١/ ٩٢).

(٢) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر، (١١/ ٨٣).

عن كل ما يحزنه.

٤- ويدخل في الحديث أيضًا مِنْ جهة المعنى أن يتكلم اثنان بلغة أجنبية لا يفهما الثالث في المجلس.

٥- الغاية الكبرى من هذه التوجيهات هي حرص الإسلام على نقاءِ المجتمع من ألوان الكراهية والبغضاء والحزازات، وزرع الفرقة بين الناس، فعلى المسلم والمسلمة أن يكون كل منهما حذرًا من الإساءة لغيره في المجالس المختلطة، فلا يتسبب في الإساءة للآخرين، ولا يكون عونًا للشيطان في قطع عرى المودة والصلة بين المسلمين.

المطلب السادس: إرشاده ﷺ أمته لحفظهم مشاعر أنفسهم

هناك أشياء مُحرجة -وإن كانت مباحةً وليست حرامًا- إلا أن الإنسان يخجلُ منها، وتتأذَّى نفسُه من معرفة الناس بها فكيف يتعامل معها؟ لا بد أن يتعامل معها بدقةٍ متناهية؛ لئلا يُحرِجه ذلك أمام الآخرين.

ففي الحديث يُرشِد النبيُّ ﷺ مَن حصل له ذلك أن يأخذ بأنْفِه وكأنه حصلَ له رعاف فعلًا، كما في الحديث عَنْ عَائِشَةَ[1] رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحْدَثَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَىٰ أَنْفِهِ وَلْيَنْصَرِفْ**»[2].

---

(١) عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، زوج النَّبِيّ ﷺ، تزوجها رَسُول اللهِ ﷺ بمكة قبل الهجرة بسنتين، وَقِيلَ: بثلاث سنين، وهي بنت ست سنين، وقيل: بنت سبع، من المكثرات في الرواية عن رسول الله ﷺ حيث روت (٢٢١٠) أحاديث أفقه النساء، وابتني بها بالمدينة، وهي ابنة تسع، توفيت سنة ثمان وخمسين، ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان، أمرت أن تدفن ليلًا، فدفنت بعد الوتر بالبقيع، وصلى عليها أَبُو هريرة، ونزل فِي قبرها خمسة: عَبْد اللهِ وعروة ابنا الزبير، والقاسم بن محمد، وعبد الله بن مُحَمَّد بْن أبي بكر، وعَبْد اللهِ بْن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن أبي بكر ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر ترجمة رقم (٤٠٢٩) (٤/ ١٨٨١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، باب «الْأَمْرِ بِالِانْصِرَافِ مِنَ الصَّلَاةِ إِذَا أَحْدَثَ الْمُصَلِّي فِيهَا وَوَضْعِ الْيَدِ عَلَى الْأَنْفِ كَيْ يُتَوَهَّمَ النَّاسُ أَنَّهُ رَاعِفٌ لَا مُحْدِثٌ حَدَثًا مِنْ دُبُرٍ»، حديث رقم (١٠١٩)، (٢/ ١٠٨)، وابن حبان، باب «ذِكْرُ وَصْفِ انْصِرَافِ الْمُحْدِثِ عَنْ صَلَاتِهِ إِذَا كَانَ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا»، حديث رقم (٢٢٣٨)، (٦/ ٩)، والدارقطني، باب «في الوضوء من الخارج من البدن كالرعاف والقيء والحجامة ونحوه»، حديث رقم (٣١)، (١/ ١٥٧) والحاكم في «المستدرك»، حديث رقم (٩٥٨)، (١/ ٣٩١) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ؛..= = لِأَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ هِشَامِ

وبوَّب الإمام ابن خزيمة[١] رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحة على هذا الحديث بقوله: «بَابُ الْأَمْرِ بِالِانْصِرَافِ مِنَ الصَّلَاةِ إِذَا أَحْدَثَ الْمُصَلِّي فِيهَا وَوَضْعِ الْيَدِ عَلَى الْأَنْفِ كَيْ يُتَوَهَّمَ النَّاسُ أَنَّهُ رَاعِفٌ لَا مُحْدِثٌ حَدَثًا مِنْ دُبُرٍ»[٢].

- ففي الحديث مراعاة لنفسية مَنْ أَحْدث وهو في الصلاة عند خروجه أن يضع يده على أنفه حتى يظن من يراه أن لديه رعاف.

- وفيه الحثُّ على ستر المسلم لنفسه بهذه الفعلة.

=

بْنِ عُرْوَةَ أَوْقَفَهُ عَنْهُ.

والحديث فيه كلام طويل، ومداره على هشام بن عروة، وقد اختلف أصحابه عليه، على وجهين الأول: الموصول، وأخرجه عنه كلٌّ من حجاج المِصيصي وعمر بن علي المقدمي، والفضل بن موسى، وابن جُريج، الثاني: المرسل، وأخرجه عنه كلٌّ من: الثوري، وحماد بن سلمة، وحماد بن أسامة، وشعبة، وزائدة بن المبارك، وعبدة ابن سليمان.

ولأن رواة الوجه المرسل أعلى رتبة من رواة الوجه الموصول، فقد قال الترمذي في «العلل الكبير» (١/ ٩٩ح١٧٠): «هشام بن عروة عن أبيه أن النبي ﷺ أصح من حديث الفضل بن موسى»، وقد أشار أبو داود إلى إعلاله فقال: (١/ ٢٩١ح١١١٤): أخرجه حماد بن سلمة، وأبو أسامة عن هشام، عن أبيه عن النبي ﷺ، لم يذكرا عائشة رضي الله عنها.

(١) محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر، أبو بكر السلمي النيسابوري إمام الأئمة، وأحد أعلام الأمة حفظًا وفقهًا وزهدًا، توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، ينظر: «الثقات» لابن حبان (٩/ ١٥٦).

(٢) صحيح ابن خزيمة، (٢/ ١٠٨).

المبحث الثالث: متابعة الصحابة ﷺ للنبي ﷺ في مراعاته للأحوال النفسية

من المقطوع به حرص الصحابة ﷺ على متابعة حبيبهم ﷺ في جميع شئون حياتهم، والأمثلة كثيرة لكني خصصتُ هذا المبحث لمتابعتهم ﷺ لحبيبهم ﷺ في أدق المتابعات، وهي مراعاة الأحوال النفسية لهم ولغيرهم، وقد بينتُ أنهم ﷺ يقرءون -حتى- تعابير وجهه ﷺ كما في المطلب الثاني من المبحث الثاني.

ففي الحديث عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ، قَالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ[1] ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ قَوْمِي، فَجَعَلَ يَفْرِضُ لِلرَّجُلِ مِنْ طَيِّءٍ فِي أَلْفَيْنِ، وَيُعْرِضُ عَنِّي، قَالَ: فَاسْتَقْبَلْتُهُ فَأَعْرَضَ عَنِّي، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ حِيَالِ وَجْهِهِ فَأَعْرَضَ عَنِّي، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: فَضَحِكَ حَتَّى اسْتَلْقَى لِقَفَاهُ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ وَاللهِ إِنِّي لَأَعْرِفُكَ، آمَنْتَ إِذْ كَفَرُوا، وَأَقْبَلْتَ إِذْ أَدْبَرُوا، وَوَفَيْتَ إِذْ غَدَرُوا، وَإِنَّ أَوَّلَ صَدَقَةٍ

(١) عمر بْن الخطاب- أمير المؤمنين ﷺ ابن نفيل بْن عبد العزى بْن رباح بْن عَبْد الله ابن قرط بن رزاح بن عدي بْن كَعْب القرشي العدوي، أَبُو حفص ولد بعد الفجار الأعظم بأربع سنين وهو أول من اتخذ الدرة، وَكَانَ نقش خاتمه «كفى بالموت واعظًا يَا عُمَر»، وَكَانَ آدم شديد الأدمة، طوالا، كثّ اللحية، أصلع، أعسر يسر، يخضب بالحناء والكتم وفضائله كثيرة جدًّا قتل عُمَر ﷺ سنة ثلاث وعشرين من ذي الحجة، طعنه أَبُو لؤلؤة فيروز غلام الْمُغِيرَة بْن شُعْبَة لثلاث بقين من ذي الحجة ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر ترجمة رقم (١٨٧٨) (٣/ ١١٤٤).

بَيَّضَتْ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوُجُوهَ أَصْحَابِهِ صَدَقَةُ طَيِّءٍ، جِئْتَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ أَخَذَ يَعْتَذِرُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا فَرَضْتُ لِقَوْمٍ أَجْحَفَتْ بِهِمُ الْفَاقَةُ وَهُمْ سَادَةُ عَشَائِرِهِمْ لما ينوبهم من الْحُقُوقِ(١).

قال الرافعي رحمه الله(٢): **الضرب الثاني: مؤلَّفة المسلمين، وهم أصناف:**

صنف دخلوا في الإسلام، ونيتهم ضعيفة، فيتألفون ليثبتوا، وآخرون لهم شرف في قومهم يَبْتَغِي بتألفهم رغبةُ نظرائهم في الإسلام؛ **ففي هذين الصنفين قولان:**

أحدهما: أنهما يعطيان تأسِّيًا برسول الله ﷺ، فإنه أعطى بالمعنى الأول عُيَيْنَةَ بن حُصَنْ، والأقرع بن حابِسٍ، وأبا سفيان بن حَرْب، وصفوانَ بْنَ أمية، وبالمعنى الثاني عديَّ بْنَ حاتم، والزِّبْرِقَانَ بْنَ بدر رضي الله عنهم.

والثاني: المنع لما ذكرنا من استغناء الإسلام عن التألُّف، ولم ينقل عن عمر، ولا عن عثمان، ولا عن علي رضي الله عنهم الإعطاءُ بذلك، فعلى الأوَّل من أين

---

(١) أخرجه البخاري، باب «قصة وفد طي وحديث عدي بن حاتم»، حديث رقم (٤٣٩٤)، (٣/ ١٣٢٦)، ومسلم، باب «مِنْ فَضَائِلِ غِفَارَ، وَأَسْلَمَ، وَجُهَيْنَةَ، وَأَشْجَعَ، وَمُزَيْنَةَ، وَتَمِيمٍ، وَدَوْسٍ، وَطَيِّءٍ»، حديث رقم (٢٥٢٣)، (٤/ ١٩٥٧).

(٢) عبد الْكَرِيم بن مُحَمَّد بن عبد الْكَرِيم بن الْفضل بن الْحسن الْقزْوِينِي، الإِمَام الْجَلِيل، أَبُو الْقَاسِم الرَّافِعِيّ، توفّي فِي ذِي الْقعدَة سنة ثَلَاث وَعشْرين وسِتمِائَة، ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى» ترجمة رقم (١١٩٢) (٨/ ٢٨١).

يُعْطَوْنَ، فيه قولان:

أحدهما: من سهم المصالح؛ لأنه من مصالح المسلمين.

وثانيهما: من الزكاة؛ وعليه يحمل قوله ﷺ: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠].

ورُوِيَ أنَّ أبا بكر رضي الله عنه أعطى عديًّا، كما أعطاه النبيُّ ﷺ.

قال الأئمة: والغالب على القلب أنه كان من الزكاة.

وصنف يبغي بتألفهم أن يجاهدوا من يليهم مِنَ الكفارِ، ومِنْ مانِعِي الزكاة، ويأخذوا زكاتهم، فهؤلاء يُعْطَوْنَ لا محالة؛ كيلا يحتاج الإمام إلى بعث جيش إليهم، إذا ثقلت المُؤْنة، وبَعُدَتِ الشُّقَّة، **ومن أين يعطون؟ فيه أربعة أقوال:**

وقال صاحب الكتاب(١) **وجماعةٌ: أربعة أوجه:**

أحدها: من خمس الخمس سهم المصالح؛ لأنه من سهم مصالح الإسلام.

والثاني: من سهم المؤلَّفة؛ لأن المقصود تألُّفهم واستمالتهم.

والثالث: من سهم سبيل الله من الزكاة؛ لأنه تألُّف على الجهاد.

والرابع: قال الشافعيُّ رضي الله عنه: يُعْطَوْنَ من سهم المؤلفة وسهْمِ سبيل الله، والأصحابُ فرقتانِ في معناه:

فرقةٌ قالت: أراد به الجمع بين السهمين، وذهب إلى أن الواحد يجوز له أنْ يجمع بين سهمين.

---

(١) هو الإمام الغزالي، أبو حامد، صاحب «الوجيز».

وفرقة منعت من الجمع، واختلف هؤلاء، فقيل: المراد؛ أنه إن كان التألُّف لقتال الكفار، يُعْطَون من سهم سبيل الله، وإنْ كان التألف لقتال مانعي الزكاة، يعطون من سهم المؤلفة؛ وعلى هذا، فليس في المسألة إلّا الأقوال الثلاثة السابقة.

وقال آخرون: يتخير الإمام، إنْ شاء أعطاهم من هذا السهم، وإنْ شاء أعطاهم من هذا السهم، وربما قيل: إن شاء جمع له بين السهمَيْنِ، وهذا ما أورده صاحب الكتاب، وفي المسألة وجه آخر، وهو: أنَّ المتألَّف لقتال مانعي الزكاة وجمعها يُعْطَى من سهم العاملين، وعن أبي حنيفةَ ومالك: أنه لا شيء للمؤلَّفة اليومَ وأنَّ حكمهم قد نسخ.

فإن بحثت عن الأظهر في إعطاء الصنفين الأولين من مؤلفة المسلمين، وعن الأظهر من الخلاف في أنَّهما من أين يعطيان إِنْ أُعْطِيَا، وعن الأظهر من الخلاف في أنَّ الصنفين الآخرين منهم من أين يعطَيَان.

فالجواب: أنَّ الأكثرين أرسلوا ذكر الخلاف في هذه الصور، وسكتوا عن الترجيح، ورأيتُ الشيخ أبا حامد في شرذمة قالوا: الأصحُّ مِنَ القولين في الصنفين الأولين؛ أنهما لا يعطيان شيئًا، لكن قياس من صار إليه ألا يعطي الصنفين الآخرين من الزكاة؛ لأنَّ الأولين أحق باسم المؤلفة وسهمها من الآخرين لأن في الآخرين معنى الغزاة والعاملين، ولذلك اختلفت الأقوال في

أنهم من أين يعطون؟ وحينئذٍ يسقط سهم المؤلفة بالكلية.

وقد أطلق القولَ به من تأخِّري الأصحاب القاضي الروياني وجماعة، إلَّا أنَّ الموافق لظاهر الآية، ثم لسياق الشافعيِّ والأصحاب ﷺ إثباتُ سهْمِ المؤلَّفة، وأنه يستحقه الصنفان الأولان، وأنه يجوز صرفه إلى الآخرين أيضًا، وبه أجاب أقضى القضاة الماورديُّ في «الأحكام السلطانية».

وقوله في الكتاب[1]: «وَكَذَا مَنْ لَهُ نُظَرَاءُ فِي الكُفْرِ» مطلقٌ يشمل الأشراف وغيرهم، ولكلٍّ نظرٌ؛ وسائر الأصحاب نقلوا القولين في الأشراف الذين لهم نظراء من الكفر، وقيدوا، فيجوز أنْ يقال: أراد ما أرادوه، ويجوز أن يُقَالَ: لا فرق إلا أنَّ الأشراف هم الذين يبحث عن حالهم، ويتحدث بأخبارهم، فلذلك صوروا الكلام فيهم وغيرهم في معناه، إذا فرض بلوغ خبرهم إلى أمثالهم وتوقُّع إسلامهم.

وقوله: «والرابع إن رأَي الإمَامُ» يجوز إعلامه بالواو؛ لقول من منع من الجمع، وأول النص قد بيناه[2].

ويوضح الموقف[3] النتيجة التربوية النبوية التي كونت هذا الأنموذج الفريد

---

(١) يقصد الغزالي في «الوجيز».

(٢) ينظر: «العزيز شرح الوجيز» المعروف بـ«الشرح الكبير» للرافعي (٧/ ٣٨٥).

(٣) الذي مر معنا في صفحة (٨٥)، حديث عدي بن حاتم ﷺ عندما أتى عمر بن الخطاب ﷺ في أناسٍ من قومه.

والتي يمكن إيضاحها فيما يلي :

- بعض مواقف عدي بن حاتم ﷺ وقومه طيء، والظاهر من وصف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مما يؤكد الأهمية الاجتماعية والنفسية والتربوية في ذكر مناقب الفضلاء من الناس، وأن إنكارها وتجاهلها من رذائل الأخلاق.

- الاعتذار المملوء بمقدمات الحب والوفاء، وهو المسلك الذي تتراحم به القلوب، وتستطيب به النفوس مما يؤكد عمق المنهج النبوي الذي ربى هذه النفوس التربية التي جعلت منهم نماذج حية وعملية للتربية.

- عدم تجاهل مطالب الآخرين، وبيان الحكمة والعلَّة في المنع والعطاء فإن في ذلك معالجة نفسية كبيرة الأثر، عميقة المعاني والدلالات التربوية، حيث يُعالج بها المُعطِي نفوسًا غير المشمولين بالعطاء، وما أحوج الآباء والمربين والمعلمين والقيادات لتطبيق ذلك في الحياة العملية.

- مراعاة أحوال الناس النفسية حيث قال أمير المؤمنين عمر ﷺ : «إِنَّمَا فَرَضْتُ لِقَوْمٍ أَجْحَفَتْ بِهِمُ الْفَاقَةُ».

- أهمية مراعاة منازل الناس حيث قال أمير المؤمنين ﷺ في تعليله لاختصاص العطاء: «وَهُمْ سَادَةُ عَشَائِرِهِمْ لِمَا يَنُوبُهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ»، وفي مراعاة مثل هذه الأحوال وبيانها ما يؤكد أهمية مراعاة الفروق الفردية ليس في الجانب التعليمي كما هو متقرر في علم التربية وعلم النفس، بل يجب مراعاتها حتى في

الأحوال الاجتماعية، ولما يترتب على السادة والكبراء من التزامات وواجبات لا تتساوى مع من دونهم.

وفي موقف آخر لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يتابع فيه معلمه ﷺ في مراعاة أهل الميت لأحوالهم النفسية، وتأثرهم بذكر موتاهم بما يكرهون فلم يتخذه لنفسه منهجًا فقط، بل جعله منهجًا عامًّا لأمة محمد ﷺ فاستغل تواجد الناس عددًا، واختلاف مفاهيمهم في مكان واحد ليرسم لهم المنهج النبوي الذي خالط دمه ولحمه.

ففي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ خَطَبَ بِمِنًى عَلَى جَبَلٍ فَقَالَ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَإِنَّ مَا سُبَّ بِهِ الْمَوْتَى يُؤْذَى بِهِ الْحَيُّ»(١).

ولنا وقفات وعبر مع هذا الموقف:

١- مراعاة نفسيات الأحياء بالنهي عن سب قرابتهم الذين ماتوا على الكفر، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا**»(٢).

٢- أن المسلم ليس بسبَّاب ولا بذئ.

٣- المحافظة على تآلف القلوب بعدم ذكر موتى الأحياء بشيء لا يحبونه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، باب «مَا قَالُوا فِي سَبِّ الْمَوْتَى وَمَا كُرِهَ مِنْ ذَلِكَ»، حديث رقم (١١٩٨٧)، (٣/ ٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، باب «ما يُنهى من سب الأموات»، حديث رقم (١٣٩٣)، (١/ ٤١٤).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ[١] قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ[٢] عِنْدَ دَارِ خَالِدِ ابْنِ عُقْبَةَ[٣] الَّتِي بِالسُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ عَبْدِ اللهِ أَحَدٌ غَيْرِي، وَغَيْرُ الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُنَاجِيَهُ، فَدَعَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَجُلًا آخَرَ حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً، فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الَّذِي دَعَاهُ: اسْتَرْخَيَا شَيْئًا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**لَا يتناجىٰ اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ**»[٤].

---

(١) عَبد اللهِ بن دِينَار الْقُرَشِي العدوي، أَبُو عَبْد الرحمن المدني، مولى عَبد اللهِ بْن عُمَر بْن الخطاب، مَاتَ سنة سبع وعشرين ومئة، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٣٢٦٩)، (٥/ ٣٢٤).

(٢) عَبْد الله بْن عُمَر بْن الخطاب الْقُرَشِيّ العدوي ﷺ، أسلم مَعَ أَبِيهِ وهو صغير لم يبلغ الحلم، أحد العبادلة، وأحد المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ حيث روى عنه (٢٦٣٠) حديثًا، ومات وهو ابْنُ ست وثمانين سنة، وقيل: أربع وثمانين سنة، وقيل: توفي سنة أربع وسبعين، ودفن بالمحصب، وقيل: بذي طوي، وقيل: بفج، وقيل: بسرف، ينظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير، ترجمة رقم (٣٠٨٠)، (٣/ ٢٣٦).

(٣) خَالِد بْن عقبة بْن أبي معيط بن أَبِي عمرو بْن أمية بْن عبد شمس بن عبد مناف، واسم أبى معيط: أبان، واسم أَبِي عمرو: ذكوان، وخالد هو أخو الْوَلِيد بْن عقبة، وهو من مسلمة الفتح، ونزل الرقة وبها عقبه، لا تعرف له رواية، ينظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير، ترجمة رقم (١٣٨٠) (١/ ٥٨١).

(٤) أخرجه البخاري، باب «لا يتناجى اثنان دون الثالث»، حديث رقم (٦٢٨٨) (٤/ ١٩٧٩)، ومسلم، باب «تَحْرِيمِ مُنَاجَاةِ الِاثْنَيْنِ دُونَ الثَّالِثِ بِغَيْرِ رِضَاهُ»، حديث رقم (٢١٨٣) (٤/ ١٧١٦).

ولنا من هذا الموقف بعض الفوائد والعبر:

١- أدب ومراعاة أمير المؤمنين عمر وابنه عبد الله رضي الله عنهما مشاعر المسلمين ونفسياتهم وكأن ذلك خلقٌ وسجية في آل الخطاب رضي الله عنهم.

٢- لم يقتصر ابن عمر رضي الله عنهما على ذكر نهيه ﷺ عن المناجاة فقط بل يُطبق ذلك عمليًّا أمام التابعين ليتعلموا منه هذا المنهج النبوي فينادي رجلًا رابعًا، وذلك ليحفظ نفسية المنفرد مراعاة له.

٣- مراعاة حالة الثالث النفسية وعدم إيذائه كما في رواية: «فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ».

الفصل الثالث

في مراعاته ﷺ لأحوال أمته النفسية

على مختلف طبقاتهم

وفيه توطئة وتسعة مباحث:

توطئة

قال الله ﷻ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وهبنا الله ﷻ دينًا قيمًا؛ في العقيدة والعبادة والمعاملة مبني على التلطف، وحسن المعاملة، ومراعاة المشاعر والخواطر فحث العباد على الانتقاء والاختيار وهذا أمر يجمع القلوب، قال الله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد وصف المولى ﷻ نبينا محمدًا ﷺ بأجمل وأكمل الأوصاف في عدة مواضع؛ فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

وقد بلغ الهادي البشير ﷺ الغاية في التعامل مع النفس البشرية، والقمة في الرعاية والاهتمام فلا يكدِّر الخواطر، ولا يسمح بالتعالي على الآخرين، ولا يدع الناس يتظالمون، ولا يجعل أحدًا يجرح شعور غيره بسببٍ أو شتمٍ أو سوءِ ظنٍ؛ لأن ذلك مما يهدم الأواصر ويسيء العلاقة، ويقطع دواعي المحبة والألفة.

وإليكم بعض الصور التي دعت إليها شريعتنا، وراعت فيها النفس البشرية:

١- إظهار المحبة ومعاملة الآخرين بها، وهي مِنْ كمال الإيمان ففي

الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ (١) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢).

٢- البعد عن الظلم والاحتقار والحسد والنجش والبغض والمدابرة وغيرها كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَىٰ هَاهُنَا**»، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»(٣).

---

(١) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي ابن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة الأنصاري النجاري، خادم رسول الله ﷺ، من المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ حيث روى (٢٢٨٦) حديثًا، يكنى أبا حمزة، سُمي باسم عمِّه أنس بن النضر، مات سنة ثلاث وتسعين، وهو ابن مائة سنة وثلاث سنين، وقيل: كانت سنه إذ مات: مائة سنة وعشر سنين ﷺ،.....= = ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، ترجمة رقم (٨٤) (١/ ١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري، باب «مِنْ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، حديث رقم (١٣)، (١/ ١٢)، ومسلم، باب «الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ»، حديث رقم (٤٥)، (١/ ٦٧).

(٣) أخرجه البخاري، باب «ما يُنهى عن التحاسد والتدابر»، حديث رقم (٢٠٦٤-٢٠٦٥) (٤/ ١٩١٥)، ومسلم، باب «تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله»، حديث رقم (٢٥٦٤)، (٤/ ١٩٨٦).

وستظهر مراعاته ﷺ لأحوال أمته النفسية والتي تُعطي الصورة الحقيقة لديننا الحنيف ومدى عظمته في فن التعامل مع الآخرين من خلال المباحث القادمة -بإذن الله ﷻ-.

المبحث الأول: مراعاته ﷺ لعلية القوم وكبرائهم

إنَّ مِن حُسن خُلق المؤمن أن ينزل الناس منزلتهم، ويعطيهم قدرهم؛ ففيه ترقيق للقلوب، وتأليف للأفئدة، وترقية للسلوك، وتقريب للمسافات، واعتراف بفضل أهل الفضل...فكما أن الإنسان مطالب بنسبة الفضل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صاحب الفضل والإنعام؛ كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وكما قال ﷻ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]، ويقول ﷻ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠].

فكما أنَّ العبد مطالب بنسبة الفضل إلى الله ﷻ، فعليه أن لا ينسى الفضل لأهله من البشر، ويعمل على إنزال الناس منازلهم، أي المنازل التي أنزلهم الله من دنياهم، أما الآخرة فقد غيَّب الله ﷻ شأنها عن العباد فإذا سويت بين الغني والفقير في مجلس أو مأدبة أو هدية كان ما أفسدت أكثر مما أصلحت فإن الغني يجد عليك إذا أزريت بحقه فإن الله ﷻ لم يعوده ذاك، والفقير يعظم ذلك القليل في عينه ويقنع بذلك؛ لأن تلك عادته وكذلك معاملة الملوك والولاة على هذا السبيل، فإذا عاملت الملوك بمعاملة الرعية فقد استخففت بحق السلطان[1].

(١) «نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ» للترمذي، (١/ ٤١٠).

وَعَنْ عَائِشَة ﵂ قَالَت: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ**»(١).

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ ﵀(٢): «سَمِعْتُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَعْرِفُ هَذَا الْحَدِيثَ وَيَقُولُ: يُتَجَافَى لِلرَّجُلِ ذِي الْهَيْئَةِ عَنْ عَثْرَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ حَدًّا»(٣).

وعَنْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ﵁ (٤): «أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث ابن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك

---

(١) أخرجه إسحاق ابن راهويه، حديث رقم (١١٤٢)، (٢/ ٥٦٧)، وأحمد، حديث رقم (٢٥٥١٣)، (٦/ ١٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد»، باب الرفق، حديث رقم (٤٦٥)، (١/ ١٦٥)، وأبو داود، باب «فِي الْحَدِّ يُشْفَعُ فِيهِ»، حديث رقم (٤٣٧٥)،..= = (٤/ ١٣٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، حديث رقم (٧٩٥٦)، (١٠/ ٥٣٩)، والحديث صححه الألباني ، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث جيد بطرقه وشواهده، قلت: والحديث صحيح.

(٢) محمَّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف، ثالث الأئمة الأربعة، ولد سنة (١٥٠هـ)، وتوفي سنة (٢٠٤هـ)، ينظر: «طبقات الشافعية» للسبكي، ترجمة رقم (١٤) (٢/ ٧١).

(٣) مسند الشافعي، (١/ ٣٦٣).

(٤) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي أبو مُحَمَّد، ويُقال: أبو زيد، ويُقال: أبو يزيد، ويُقال: أبو حارثة المدني، الحب ابْن الحب، مولى رَسُول اللهِ ﷺ، مات بوادي القرى سنة أربع وخمسين، وهو ابن خمس وسبعين، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٢١) (١/ ٧٥)، و«تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٣١٦) (٢/٣٣٨).

قبل أن يسلم عبد الله بن أُبي، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر عبدُ الله بن أبي أنفَه بردائه، ثم قال: لا تغبِّروا علينا، فسلَّم رسولُ الله ﷺ عليهم، ثم وقفَ فنزلَ فدَعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآنَ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: «أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه»، فقال عبد الله بن رواحة: «بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا؛ فإنَّا نحب ذلك»، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبيُّ ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال له النبي ﷺ: «**يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب -يريد عبد الله بن أبي- قال كذا وكذا**»، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبي الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبيُّ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا...الآية﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال

الله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة: ١٠٩] إلى آخر الآية، وكان النبيُّ ﷺ يتأوَّل العفوَ ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا

رسولُ الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديدَ كفار قريش، قال ابن أبي سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا(١).

وعلىٰ ضوء هذا الموقف نستقي بعض الفوائد والعبر:

١- السمو الأخلاقي في تعامل النبي ﷺ، فحين خاطبه عبد الله بن أُبيٍّ بقوله: «أَيُّهَا الْمَرْءُ...» ذكره النبيُّ ﷺ في غيبته بكنيته، فقال لسعد رضي الله عنه: «**يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ**»؟ فسعد رضي الله عنه وعبد الله بن أُبيّ هما سيدا الخزرج.

٢- القمة في مراعاة النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه، فإنه ﷺ ما جاء سعدًا مُغضبًا -وحُقَّ له- ولكنها رسالة لسعد رضي الله عنه ورسالة لابن أُبيّ؛ لأن سعدًا حتمًا سيلتقي به ويخبره بما قاله ﷺ، فلعل نفسه ترتاح من سماع هذا المديح، ولأن في هداية عبد الله بن أُبيّ هداية أهل البحيرة الذين أرادوا أن يتوجوه فيُعَصِّبُوه بالعصابة.

---

(١) أخرجه البخاري، باب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، حديث رقم (٤٥٦٦)، (٣/ ١٣٨٥)، ومسلم، باب «فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، وَصَبْرِهِ عَلَى أَذَى الْمُنَافِقِينَ»، حديث رقم (١٧٩٨)، (٣/ ١٤٢٢).

٣- تشخيص سعدٍ ﷺ حالَ عبدِ الله بن أُبي غاية في الدقة والدراية، وعليه فقد راعى ﷺ هذه المنزلة، وراعى أحوالهما النفسية، فلم يجْرحه عند سعدٍ ﷺ؛ لأن في جرحه جرح لسعد ﷺ، وكل ذلك لم يكن خافيًا عليه ﷺ بل زاده حرصًا على احتواء عبد الله بن أُبيّ حتى أصبح لا يصدق كل ما قيل عنه.

٤- كان النبي ﷺ يتألف على الإسلام النافرين منه، فكان يعفو عن أشياء كثيرة أول الإسلام؛ لئلا يزدادوا نفورًا، فكان ﷺ يتألفهم بطلاقة وجهه، ولين كلمته، وبسط المال لهم، والإغضاء عن هناتهم، حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم، ويراهم أمثالهم فيدخل في الإسلام ويتبعهم أتباعهم عليه، ولهذا لم يقتل المنافقين، ووكل أمرهم إلى ظواهرهم، مع علمه ببواطن كثير منهم، وإطلاع الله إياه على ذلك.

٥- كان المنافقون معدودين في الظاهر في جملة أنصاره وأصحابه ومن تبعه، وقاتلوا معه غيرهم حمية أو طلب دنيا أو عصبية لمن معهم من عشائرهم، وعلمت بذلك العرب، فلو قتلهم لارتاب بذلك من يريد الدخول في الإسلام ونفره ذلك عنه.

٦- لم يواجه النبيُّ ﷺ ابنَ سلول ومؤامراته المدبَّرة بالقوة واستعمال السلاح حرصًا على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أُبي أتباعًا وشيعة مسلمين مغرورين به، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له، وقد

يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين.

وقد ثبت في حديث قصة الإفك قالت عائشة رضي الله عنها: «... فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين من يعذرنا من رجل قد بلغنا أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت في أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا وما كان يدخل على أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت! لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أُسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمرو الله لنقتلنه؛ فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله يخفِّضهم حتى سكتوا وسكت»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، باب «باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا إلى قوله الكاذبون»، حديث رقم (٢٦٦١) (٢/ ٨٠٤)، ومسلم، باب .....= = «في حديث الإفك وقبول توبة القاذف»، حديث رقم (٢٧٧٠) (٤/ ٢١٢٩).

● وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه [١] قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَوْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، أَوْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ الله ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَقَتَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَرَأَ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ**»[٢].

قال الحافظ العيني رحمه الله[٣]: قوله «في غزاة» هي غزوة تبوك على ما وقع في رواية النسائي، والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة بني المصطلق، وذكر أبو

---

(١) زيد بْن أرقم بْن زيد بْن قيس بن النعمان بْن مالك الأغر بْن ثعلبة بْن كعب بْن الخزرج ابْن الحارث بْن الخزرج بْن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، ثم من بني الحارث بْن الخزرج، كنيته أَبُو عمر رضي الله عنه، توفي بالكوفة سنة ثمان وستين، وقيل: مات بعد قتل الحسين رضي الله عنه بقليل، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ترجمة رقم (٨٣٧) (٢/ ٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري، باب «تفسير سورة المنافقين»، حديث رقم (٤٩٠٠)، (٣/ ١٥٦١)، ومسلم، كتاب «صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْكَامِهِمْ»، حديث رقم (٢٧٧٢)، (٤/ ٢١٤٠).

(٣) مَحْمُود بن أَحْمد بن مُوسَى بن أَحْمد بن يُوسُف بن مَحْمُود العينتابي الْحَنَفِيّ، قَاضِي الْقُضَاة بدر الدّين الْعَيْنِيّ، ولد فِي رَمَضَان سنة اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَسَبْعمائة بـ«عينتاب»، وَمَات فِي ذِي الْحجَّة سنة خمس وَخمسين وَثَمَانمِائَة، ينظر: «نظم العقيان في أعيان الأعيان» للسيوطي (١/ ١٧٤).

الفرج أنها المريسيع سنة خمس، وقيل: ست، وقال موسى: سنة أربع.

قوله: «عبد الله بن أبي ابن سلول» رأس المنافقين، والابن الثاني صفة لعبد الله، فهو بالنصب، و«سلول» غير منصرف؛ لأنه اسم أم عبد الله، فهو منسوب إلى الأبوين.

قوله: «يقول لا تنفقوا» إلى قوله «الأذل» هو كلام عبد الله بن أبي، ولم يقصد الراوي به التلاوة، وقال بعضهم: وغلط بعض الشُّرَّاح فقال: هذا واقع في قراءة ابن مسعود ﷺ، قلت: أراد به صاحب «التلويح»[1]، ولكنه لم يقل هكذا، وإنما قال قوله «حتى ينفضوا مِن حولِه» بكسر الميم، وجرّ اللام، وكذا هو في السبعة، قال النووي رحمه الله: وقرئ في الشاذ «مَن حوله» بالفتح، هذا الذي ذكره صاحب «التلويح»، نعم قوله «كذا هو في السبعة» فيه نظر.

قوله: «ولئن رجعنا» كذا في رواية الأكثرين، وفي رواية الكشميهني «ولو رجعنا».

قوله: «لعمي أو لعمر» كذا بالشك، وفي سائر الروايات التي تأتي «لعمي» بلا شك، وكذا عند الترمذي من طريق أبي سعيد الأزدي، عن زيد، ووقع عند الطبراني وابن مردويه أن المراد بعمه سعد بن عبادة، وليس عمه حقيقة، وإنما هو سيد قومه

---

(١) يقصد الإمام علاء الدين مغلطاي، الفقيه الحافظ الحنفي، المتوفى سنة (٧٦٢هـ)، واسم كتابه «التلويح إلى شرح الجامع الصحيح».

الخزرج، وعم زيد بن أرقم الحقيقي ثابت بن قيس، له صحبة، وعمُّه زوجُ أمِّه عبد الله ابن رواحة خزرجي أيضًا، وفي كلام الكرماني أنه عبد الله بن رواحة، وهو عمه المجازي؛ لأنه كان في حجره، وأنهما من أولاد كعب الخزرجي، وقال الغساني: الصواب «عمي» لا «عمر» على ما رواه الجماعة.

قوله: «فذكره للنبي ﷺ» أي: فذكره عمي، ووقع في رواية ابن أبي ليلى عن زيد: «فأخبرت به النبي ﷺ»، وكذا وقع في مرسل قتادة، والتوفيق بينهما أنه يحمل على أنه أرسل أولًا ثم أخبر به بنفسه.

قوله: «فكذبني رسول الله ﷺ» بالتشديد.

قوله: «وصدَّقه» أي: وصدَّق عبد الله بن أُبي.

قوله: «فأصابني هم لم يصبني مثله قط» يعني في الزمن الماضي، ووقع في رواية زهير: «فوقع في نفسه شدة»، ووقع في رواية أبي سعد الأزدي، عن زيد: «فوقع عليَّ من الهم ما لم يقع على أحد»، وفي رواية محمد بن كعب: «فرجعت إلى المنزل فنمت»، زاد الترمذي رواية: «فنمت كئيبًا حزينًا»، وفي رواية ابن أبي ليلى: «حتى جلست في البيت مخافة إذ رآني الناس أن يقولوا كذبت».

قوله: «ما أردت إلا أن كذبك» بالتشديد أي: ما قصدت منتهيًا إليه أي: ما حملك عليه.

قوله: «ومقتك» من مقته مقتًا إذا أبغضه بغضًا، وفي رواية محمد بن كعب:

«فلامني الأنصار»، وعند النسائي من طريقه: «ولامني قومي».

قولـه: «فـأنزل الله»، وفي روايـة محمـد بـن كعـب: «فـأتي رسـول الله ﷺ» أي: الوحي، وفي رواية زهير: «حتى أنزل الله تعالى»، وفي رواية أبي الأسود عن عروة: «فبينما هم يسيرون أبصروا رسول الله يوحى إليه» فنزلت، وفي رواية أبي سعد عن زيد قال: «فبينما أنا أسير مع رسول الله قد خفقت برأسي من الهم أتاني، فعرك أذني فضحك في وجهي»، فلحقني أبو بكر ﷺ فسألني، فقلت له: أبشر، ثم لحقني عمر ﷺ ذلك، فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون.

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ زاد آدم بن أبي إياس إلى قوله ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٧-٨][1].

ومن خلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- حرص النبي ﷺ على مواساة زيد بن أرقم ﷺ، وإظهار صدقه.

٢- فيه ربط للمسلم بالله ﷻ وأنه يصدق من صَدَقَه.

٣- فيـه تشـجيع لزيـدٍ ولمَـن بعـده بالـدفاع عـن الـدين، والقيـام بـالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) ينظر: «عمدة القاري بشرح صحيح البخاري» للعيني، باب قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، شرح حديث (٤٩٠٠) (٢٨/ ٣٧٥).

٤- فعل زيد ﷺ ذلك حبًّا للنبي ﷺ، ودفاعًا عنه، وغيرةً عليه.

٥- صبر النبي ﷺ على المنافقين، وطول نَفَسِه عليهم، رغم أذيّتهم له ﷺ.

المبحث الثاني: مراعاته ﷺ لأبناء من مات آباؤهم على الكفر أو النفاق

كان ﷺ يعلمُ أن الكافرين حصب جهنم، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ومع ذلك كله كان يراعي أحوال أبنائهم وذويهم النفسية، مبينًا لهم أنه لا خصومة بينه ﷺ وبين آبائهم، وإنما كان حريصًا على هدايتهم، ولكن الله يفعل ما يريد.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ رسول الله ﷺ: «**فِي النَّارِ**»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «**إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**»(١).

ومن طيات هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- جواب النبي ﷺ للسائل هنا بما يكره ليغلق الباب على كل سائل مات أبوه في الجاهلية أو مات على الكفر؛ لأنه هو الذي يحذِّر أمته من النيل من الميت؛ احترامًا لمشاعر أهله.

٢- الحديث دليل على أن من مات على الكفر وقد وصلته الدعوة، ولم يكن من أهل الفترة فهو في النار، ولا تنفعه شفاعة المقربين.

٣- الحديث دليل على أن والد النبيِّ ﷺ في النار.

فإن قيل: أليس أبو النبي ﷺ ومن مات قبل البعثة من أهل الفترة الذين لم

---

(١) أخرجه مسلم، باب «بَيَانِ أَنَّ مِنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَلَا تَنَالُهُ شَفَاعَةٌ، وَلَا تَنْفَعُهُ قَرَابَةُ الْمُقَرَّبِينَ»، حديث رقم (٢٠٣)، (١/ ١٩١).

تبلغهم الرسالة؟

فالجواب: معلوم أن لأهل العلم أقوال في حكم أهل الفترة في الآخرة.

فقيل: هم في النار، لقوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقيل: هم معذورون؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقيل: إنهم يمتحنون يوم القيامة، فإن أجابوا ففي الجنة، وإن لم يجيبوا فهم في النار؛ لحديث الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رضي الله عنه [(١)] عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونَنِي بِالْبَعَرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ**

---

(١) الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة بن النزال، ابن مرة بن عُبَيد التميمي، أَبُو عَبْد اللهِ السعدي المنقري، من بني سعد بْن زيد مناة بْن تميم، ثم من بني منقرلَهُ صحبة، غزا مع النَّبِيِّ ﷺ أربع غزوات، ونزل البصرة، وكَانَ شاعرًا محسنًا قاصًّا، وهُوَ أول من قص فِي مسجد البصرة، توفي أيام الجمل سنة اثنتين وأربعين، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٤٤) (١/ ٨٩)، و«تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٥٠٠) (٣/ ٢٢٢).

رَسُولًا أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا كَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»[1].

وهذا القول هو الراجح، والله أعلم، واختاره الشيخ ابن باز رحمه الله قال: «الصحيح من أقوال العلماء أن أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة، ويؤمرون فإن أجابوا وأطاعوا دخلوا الجنة، وإن عصوا دخلوا النار، وجاء في هذا عدة أحاديث عن أبي هريرة، والأسود بن سريع التميمي، وعن جماعة كلها تدل على أنهم يمتحنون يوم القيامة، ويخرج لهم عنق من النار، ويؤمرون بالدخول فيه، فمن أجاب صار عليه بردًا وسلامًا، ومن أبى التف عليه وأخذه وصار إلى النار، نعوذ بالله من ذلك».

وأما أبو النبي ﷺ فقد دل حديث الباب أنه في النار مع أنه من أهل الفترة، وأجاب العلماء على هذا الإشكال بعدة أجوبة:

قيل: لأن الله تعالى علم أنَّ والد النبي ﷺ ممن لن يجيب في امتحان يوم القيامة، فأوحى ذلك لنبيه ﷺ، واختار هذا القول ابن كثير رحمه الله حيث

---

(١) أخرجه أحمد، في حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه حديث رقم (١٦٢٩٩) (٤/ ٢٤)، والبزار، حديث رقم (٩٥٩٧) (١٧/ ٧٠)، وابن حبان، باب «ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَنْ وَصْفِ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حديث رقم (٧٣٥٧) (١٦/ ٣٥٧)، واللفظ له، وقال: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه، فقد روى له النسائي وغيره والحديث حسَّنة شعيب الأرنؤوط، وقال الألباني: صحيح، انظر: «صحيح الجامع»، حديث رقم (٨٨١).

قال:«وإخباره ﷺ عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافي الحديث الوارد عنه من طرق متعددة أن أهل الفترة والأطفال والمجانين، والصم يمتحنون في العرصات يوم القيامة، فيكون منهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب فلا منافاة، ولله الحمد والمنة»(١).

وقيل: المراد بالأب في حديث الباب عمه أبو طالب، وقد أدرك البعثة ومات على الكفر، والعرب تطلق الأب على العم، وهذا القول ضعيفٌ وبعيدٌ؛ لأن فيه صرف المعنى عن ظاهره.

وقيل: لأن والد النبي ﷺ ممن بلغهم بقايا دين إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك مات على غير التوحيد، فلا يعذر حينئذ، فكان من أهل النار، واختاره النووي رحمه الله وابن باز رحمهما الله تعالى.

وهذه نقولات لبعض أهل العلم حول هذه المسألة:

قال النووي رحمه الله: «وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبول بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم»(٢).

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٢٨١).

(٢) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٣/ ٧٤).

قال البيهقي رحمه الله[١]: «وكيف لا يكون أبواه وجده بهذه الصفة في الآخرة وكانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا، ولم يدينوا دين عيسى بن مريم عليه السلام وأمرهم لا يقدح في نسب رسول الله ﷺ؛ لأن أنكحة الكفار صحيحة، ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد، ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز في الإسلام، وبالله التوفيق»[٢].

وقال أيضًا: «وَأَبُواهُ كَانَا مُشْرِكَيْنِ بِدَلِيلِ مَا أَخْبَرَنَا وساق الحديث «**إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**»[٣].

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: «إن أهل الشرك من أهل الجحيم، وأن أبويه كانا منهم»[٤].

وأما الإمام ابن ماجه رحمه الله[٥]: حيث روى حديث الاستئذان، وبوّب له

---

(١) أَحْمد بن الْحُسَيْن بن عَليّ بن مُوسَى الإِمَام أَبُو بكر الْبَيْهَقِيّ الخسروجردي، مُصَنف «السّنَن الْكَبِير»، كَانَ أوحد زَمَانه، وفرد أقرانه، تُوفِّي سنة ثَمَان وَخمسين وَأَرْبع مائَة، ينظر: «التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» لابن نقطة (١/ ١٣٧).

(٢) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي، (١/ ١٩٢).

(٣) ينظر: «السنن الكبرى» للبيهقي، باب «نكاح أهل الشرك وطلاقهم» (٧/ ١٩٠).

(٤) ينظر: «جامع البيان في تأويل القرآن» لابن جرير الطبري، (٢/ ٥٩٠).

(٥) محمد بن يزيد بن ماجة القزويني، أبو عبد الله الحافظ، صاحب السنن، سمع أصحاب مالك والليث، وعنه أبو الحسن القطان وطائفة، ولد سنة تسع ومائتين ومات (٢٧٣هـ)، ينظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٦/ ٢٧٠).

بقوله: «باب ماجاء في زيارة قبور المشركين»[١].

وروى الإمام النسائي في سننه «الكبرى» و«الصغرى» حديث الاستئذان، وبوّب عليه بقوله: «زيارة قبر المشرك»[٢].

فهذه نُقولٌ عن جَمْع من أئمة السلفِ، النووي، والبيهقي، وابن ماجه، والنسائي، والطبري، وابن كثير، كلّها تُثبت وبالدليل أن أبوي المصطفى ﷺ لم يكونا على الإسلام.

ويقول الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني رحمه الله[٣]: «كثيرًا ما تجمع المحبة ببعض الناس، فيتخطى الحجة ويحاربها، ومَن وُفِّق عَلِم أن ذلك منافٍ للمحبة المشروعة»[٤].

---

(١) سنن ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب «ما جاء فِي زيارة قبور المشركين»، (٢/ ٥١٢).

(٢) سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب «زيارة قبر المشرك»، (١/ ٤١٨).

(٣) عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن أبي بكر المعلمي العتمي اليماني، ينسب إلى بني المعلم من بلاد عتمة باليمن أبوعبد الله، توفي الشيخ صبيحة يوم الخميس السادس من شهر صفر عام ألف وثلاثمائة وستة وثمانين من الهجرة النبوية، عن عمر يناهز ثلاث وسبعون سنة، ينظر: «المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين» (١/ ٢٠٠).

(٤) «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني، بتحقيق المعلمي، (١/ ٣٢٢).

ويقول الشيخ الألباني رحمه الله[1]: «واعلم أيها المسلم أن هذه الأحاديث ونحوها مما فيه الإخبار بكفر أشخاص أو إيمانهم، إنما هو من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها وتلقيها بالقبول؛ لقوله ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ١ - ٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فالإعراض عنها وعدم الإيمان بها يلزم منه أحد أمرين لا ثالث لهما -وأحلاهما مر-: إما تكذيب النبي ﷺ، وإما تكذيب رواتها الثقات كما تقدم، وأنا حين أكتب هذا أعلم أن بعض الذين ينكرون هذه الأحاديث أو يتأولونها تأويلًا باطلًا كما فعل السيوطي -عفا الله عنا وعنه- في بعض رسائله، إنما يحملهم على ذلك غلوهم في تعظيم النبي ﷺ، وحبهم إياه، فينكرون أن يكون أبواه ﷺ كما أخبر هو نفسه عنهما، فكأنهم أشفق

---

(١) العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، أحد أبرز العلماء المسلمين في العصر الحديث، ويعتبر الشيخ الألباني من علماء الحديث البارزين المتفردين في علم الجرح والتعديل، والشيخ الألباني حجة في مصطلح الحديث، وقال عنه العلماء المحدثون إنه أعاد عصر ابن حجر العسقلاني والحافظ بن كثير وغيرهم من علماء الجرح والتعديل، توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة (١٤٢٠هـ).
ينظر: سوانِح عَطِرَة من سِيرَة ناصر الدين والسُنَّة المُطَهّرة المجدد الإمام محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله وآثاره العلمية، بقلم تلميذه الشيخ عاصم القريوتي.

عليهما منه ﷺ»[١].

قلت: ولاأدري لماذا لم تتحرّك تلك العواطف التي لم تنضبط بضابط الشرع تُجاه آزر والد إبراهيم عليه السلام، فقد قال الله فيه:﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[التوبة: ١١٤]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام: ٧٤].

٤- الحديث دليل على أن النبيَّ ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا لأحدٍ ولو كان قريبًا فهو لا يملك له من الله شيئًا، وإذ لو قَدَر على نفع أحد مات على الكفر لنفع أباه.

٥- الحديث دليل على أنه لا محاباة لأحد عند الله ﷻ مهما ارتفعت منزلته.

٦- في الحديث دلالة على أن الله ﷻ يطلع نبيه ﷺ على بعض الغيب.

٧- في الحديث حسن مراعاة النبي ﷺ لمشاعر المتعلم إذا كان التعليم أو الجواب مما يفجعه، وتسلية لمصابه بالاشتراك في المصيبة حتى تهون مصيبته بأبيه.

قال النووي رحمه الله: قول النبيِّ ﷺ «**إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**» هو من حسن

(١) ينظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» للألباني، (٦/ ٩١).

العشرة للتسلية بالاشتراك في المصيبة[١].

وَعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ[٢] ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ**»[٣]، قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَبَراني رحمه الله[٤]: عَنَى النَّبِيُّ ﷺ الْكُفَّارَ الَّذِينَ أَسْلَمَ أَوْلَادُهُمْ[٥].

وفي موقف آخر عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ[٦] عَنْ أَبِيهِ[٧] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ

---

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٣/ ٧٤).

(٢) المغيرة بْن شعبة بْن أَبِي عَامِر بْن مسعود بْن معتب بْن مالك بْن كعب بْن عَمْرو بْن سعد بْن عوف بْن قيس، وهو ثقيف الثقفي، يكنى أبا عَبْد اللهِ، وقيل: أَبُو عِيسَى، أسلم عام الخندق، وشهد الحديبية، وله فِي صلحها كلام مع عروة بْن مسعود، كَانَ يذكر أن رَسُول اللهِ ﷺ كناه أبا عِيسَى، وكناه عمر بْن الخطاب رضي الله عنه أبا عَبْد اللهِ، توفي بالكوفة سنة خمسين، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٢٤٨٣) (٤/ ١٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري، باب «ما يُنهى من سب الأموات» حديث رقم (١٣٩٣)، (١/ ٦٣٤).

(٤) سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ مُطَيِّرٍ اللَّخْمِيُّ، أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ، تُوُفِّيَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْهُ سَنَةَ سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةَ، وَدُفِنَ يَوْمَ الْأَحَدِ مِنْ غَدِهِ، ينظر: «تاريخ أصبهان» لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٣٩٣).

(٥) الطبراني في «الصغير»، حديث رقم (٥٩٠)، (١/ ٣٥٣).

(٦) مُحَمَّد بن جُبَيْر بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عَبْد مناف بْن قصي القرشي النوفلي، أَبُو سَعِيد المدني، مدني، تابعي ثقة، توفي مُحَمَّد في خلافة سُلَيْمان بْن عَبد المَلِك، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٥٧٤٠) (٨/ ٦٠٩).

(٧) جبير بْن مطعم بْن عدي بْن نوفل بْن عبد مناف بْن قصي القرشي النوفلي يكنى: أبا

فِي أُسَارَى بَدْرٍ: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَىٰ لَتَرَكْتُهُمْ لَه**»(١).

وخلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- كم لهذه الكلمات من وقعٍ جميل في نفس جبير بن مطعم بن عدي ﷺ مع أن والده المطعم مات كافراً.

٢- حسن وفاءه ﷺ لمن أحسن إليه.

٣- تطييب نفس جبير بن مطعم ﷺ من ذكر محاسن والده.

وموقف آخر أشدُ عمقًا من قضية المطعم بن عدي(٢)، صورة هي للخيال

=

مُحَمَّد، وقيل: أبا عدي، كان من حلماء قريش وساداتهم، وكان يؤخذ عنه النسب لقريش، وللعرب قاطبة، وكان يقول: أخذت النسب عن أَبِي بكر الصديق ﷺ، تُوُفِّيَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ، وَقِيلَ: سَنَةَ ثَمَانٍ، وَقِيلَ: سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٣١١) (١/ ٢٣٢).

(١) أخرجه البخاري، باب «شهود الملائكة بدرًا»، حديث رقم (٤٠٢٥)، (٣/ ١٢٢٥).

(٢) المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، من قريش: رئيس بني نوفل في الجاهلية، وهو الّذي أجار رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف وعاد متوجها إلى مكة، ونزل بقرب (حراء) فبعث إلى بعض حلفاء قريش ليجيروه في دخول مكة، فامتنعوا، فبعث إلى (المطعم بن عدي) بذلك، فتسلح المطعم وأهل بيته وخرج بهم حتى أتوا المسجد، فأرسل من يدعو النبي ﷺ للدخول، فدخل مكة وطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله آمنا، مات قبل وقعة بدر، وله بضع وتسعون سنة.
ينظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي، ترجمة رقم (٥٨٠) (٢/ ٩٧).

أقرب منها للحقيقة لو لم تروها لنا كتب السنة الصحيحة إنها صورة مراعاةِ ابنِ من نال من عرض رسول الله ﷺ، رأس النفاق عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول[١]، وهي تدل على نفسٍ سمت فوق كل الأنفس، وعاشت داخل كل نفسٍ، تراعي ظرفها، وتجبر كسرها.

ففي الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ**: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، **وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ**»، قَالَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ

(١) عبد الله بن أبي بن سلول، وهو من بني عوف بن الخزرج، قدم رسول الله ﷺ المدينة وكان سيد أهلها لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام، وكان عبد الله قد نظم له قومه الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكه، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مصرًّا على نفاق وضغن، ينظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ترجمة رقم (٢٨٥) (١/ ٢٦٠).

قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]»[١].

وفي رواية أخرى في الصحيحين هي أشد عجبًا من سابقتها، فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ حُفْرَتَهُ فَأَمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ فَوَضَعَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقِهِ وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ، فَاللهُ أَعْلَمُ، وَكَانَ كَسَا عَبَّاسًا قَمِيصًا (قَمِيصَهُ) قَالَ سُفْيَانُ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ : وَكَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَمِيصَانِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُه عَبْدِ اللهِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلْبِسْ أَبِي قَمِيصَكَ الَّذِي يَلِي جِلْدَكَ.

قَالَ سُفْيَانُ ﷺ[٢]: فَيُرَوْنَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَلْبَسَ عَبْدَ اللهِ قَمِيصَهُ مُكَافَأَةً لِمَا صَنَعَ[٣].

قلت: وكانت لعبد الله بن أُبي يد عند النبيِّ ﷺ لكساء العباس[٤] عم النبيِّ

---

(١) أخرجه البخاري، باب قَوْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، حديث رقم (٤٦٧٠)، (٣/ ١٤٣١)، ومسلم، «كِتَابُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْكَامِهِمْ»، حديث رقم (٢٧٧٤)، (٤/ ٢١٤١).

(٢) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي.

(٣) أخرجه البخاري، باب «هَلْ يُخْرَجُ الْمَيِّتُ مِنَ الْقَبْرِ وَاللَّحْدِ لِعِلَّةٍ»، (١/ ٤٠١)، ومسلم، «كِتَابُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْكَامِهِمْ»، حديث رقم (٢٧٧٣)، (٤/ ٢١٤١).

(٤) هو العباس بْن عبد المطلب بْن هاشم بن عبد مناف بْن قصي بْن كلاب بْن مرة، .....= = عم رَسُول اللهِ ﷺ وصنو أبيه، يكنى أبا الفضل، بابنه، شهد مع رسول ﷺ بيعة العقبة، لما بايعه الأنصار، ليشدد له العقد، وكان حينئذ مشركًا، وكان ممن خرج مع المشركين إِلَى بدر

ﷺ قميصه فأحب أن يكافئه.

وفي الحديث عَنْ جَابِر بْن عَبْد اللهِ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُتِيَ بِأُسَارَى وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ (يُقْدَرُ) عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ، فَلِذَلِكَ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ الَّذِي أَلْبَسَهُ.

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: «كَانَتْ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَدٌ فَأَحَبَّ أَنْ يُكَافِئَهُ»(١).

قلت: وحديث ابن عمر، وحديث جابر بن عبد الله ﷺ ظاهرهما التعارض.

وقد أجاب عن هذا التعارض الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» فقال: إن ظاهر قوله في حديث جابر ﷺ أتى النبي ﷺ عبد الله بن أُبي بعد ما دفن فأخرجه فنفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه مخالف لقوله في حديث عبد الله بن عمر ﷺ لما مات عبد الله بن أبي جاء ابنه فقال يا رسول الله: أعطني قميصك أكفنه فيه، فأعطاه قميصه، وقال: آذني أصلي عليه، فآذنه، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر

=

مكرهًا، وأسر يومئذ فيمن أسر، توفي بالمدينة يَوْم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل: بل من رمضان، سنة اثنتين وثلاثين، قبل قتل عثمان بسنتين، وصلى عليه عثمان، ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، ينظر: «أسد الغابة» لابن الأثير، ترجمة رقم (٢٧٩٩) (٣/ ١٦٣).

(١) أخرجه البخاري، باب «الْكِسْوَةِ لِلْأُسَارَى»، حديث رقم (٣٠٠٨)، (٢/ ٩٢٥).

ﷺ...الحديث»، وقد جمع بينهما بأن معنى قوله في حديث ابن عمر ﷺ «فأعطاه» أي: أنعم له بذلك، فأطلق على العدة اسم العطية مجازًا؛ لتحقق وقوعها، وكذا قوله في حديث جابر ﷺ بعد ما دفن عبد الله بن أبي، أي دُلي في حفرته، وكأن أهل عبد الله بن أبي خشوا على النبي ﷺ المشقة في حضوره، فبادروا إلى تجهيزه قبل وصول النبي ﷺ، فلما وصل وجدهم قد دلوه في حفرته، فأمر بإخراجه إنجازًا لوعده في تكفينه في القميص والصلاة عليه والله أعلم.

وقيل: أعطاه ﷺ أحد قميصيه أولًا ثم لما حضر أعطاه الثاني بسؤال ولده، وفي «الإكليل» للحاكم ما يؤيد ذلك.

وقيل: ليس في حديث جابر ﷺ دلالة على أنه ألبسه قميصه بعد إخراجه من القبر؛ لأن لفظه فوضعه على ركبتيه وألبسه قميصه، والواو لا ترتب، فلعله أراد أن يذكر ما وقع في الجملة من إكرامه له من غير إرادة ترتيب[1].

قلت: اختُلف في إعطاء النبيّ ﷺ قميصه لعبد الله بن أُبي؛ فقيل: إنما أعطاه لأنه كان قد أعطى العباس ﷺ عمّ النبيّ ﷺ قميصه يوم بدر، وذلك أن العباس ﷺ لما أُسِر يوم بدر على ما تقدّم وسُلب ثوبه رآه النبي ﷺ كذلك فأشفق عليه، فطلب له قميصًا فما وُجد له قميص يقادره إلا قميص عبد الله بن أبي، لتقاربهما في طول القامة؛ فأراد النبي ﷺ بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه في الدنيا، حتى لا يلقاه في

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، (٣/ ١٣٩).

الآخرة وله عليه يد يكافئه بها.

وقيل: إنما أعطاه القميص إكرامًا لابنه وإسعافًا له في طِلبته وتطييبًا لقلبه، والأول أصح لحديث جابر رضي الله عنه.

المبحث الثالث: مراعاته ﷺ للفقراء

حياة النبي ﷺ وسيرته العطرة زاخرة بمواقفه مع الفقراء، التي علمنا من خلالها أن الرحمة الحقيقية بالفقراء والضعفاء وأصحاب الحاجات، لا تتمثل في مجرد تألم القلب لحالهم -وإنْ كان ذلك محمودًا- وإنما حقيقة الرحمة هي تلك التي تدفع صاحبها إلى خطوات فعّالة على قدر استطاعته لمساعدتهم وتقديم سبل العون لهم.

في الحديث عَنِ جَرِير بن عبدالله ﷺ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وَقَرَأَ الآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ** - حَتَّى قَالَ- **وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ**

سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»(١).

ومع هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- المسلم يتألم لألم أخيه، ويفرح لفرحه، ويُسر حين يرى حاجته قد انقضت، بل عليه أن يسعى في قضاء حاجة أخيه، وتفريج همه وكربه، ولذا يصف جرير بن عبد الله ﷺ النبيَّ ﷺ حين رأى ما بهؤلاء المسلمين من الفقر الشديد: (فتمعَّر «تغير حزنًا» وجه رسول الله ﷺ؛ لما رأى بهم من الفاقة)، ثم وصفه بعد أن سارع الصحابة ﷺ لمساعدة إخوانهم: (حتى رأيتُ وجهَ رسول الله ﷺ يتهلَّل «يستنير فرحًا وسرورًا»)، وهذا ما ينبغي على المسلمين تجاه إخوانهم الفقراء الضعفاء المكروبين في أي مكان، عليهم أن يتألموا لآلامهم، وأن يُبادروا إلى إعانتهم، ويُسارعوا إلى مساعدتهم قدْر استطاعتهم.

٢- وفي هذا الموقف ظهرت لنا رحمة النبي ﷺ ورأفته وشفقته بالمؤمنين، إذ تغير وجهه حزنًا على حال هؤلاء الفقراء من المسلمين، فمن سمات الكمال التي تحلّى بها نبينا ﷺ خُلُقُ الرحمة والرأفة بالغير، وصدق الله ﷻ القائل: ﴿لَقَدْ

(١) أخرجه مسلم، باب «الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ»، حديث رقم (١٠١٧)، (٢/ ٧٠٤).

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال السعدي في تفسيره: «أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم».

٣- من هدي نبينا ﷺ إذا أفزعه أو أحزنه أمر سارع إلى الصلاة، وذلك لِمَا قاله جرير بن عبد الله رضي الله عنه وهو يصف حال النبي ﷺ لما رأى شدة وحاجة هؤلاء الفقراء: «تمعَّر وجه رسول الله ﷺ؛ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذَّن وأقام، فصلَّى».

٤- نظرته ﷺ الرحيمة التي لا يلتفت إليها كثير من الناس، والتي تكمن في حساسية الموقف، فأفقر الأمة واقفون أمام قائدهم الأعلى حفاة عراة.

٥- أنهم ما جاءوا إلا والحاجة قد بلغت بهم غايتها، فكيف بمن خلفهم.

٦- النبي ﷺ يرى هذا المنظر ولا يملك ما يسد فاقتهم، فتتحرك في داخله المسئولية المملؤة بالرحمة والشفقة ويظهر ذلك في وجهه الشريف ﷺ.

٧- أن بيته ﷺ لا يوجد فيه من الطعام ما يعطيه لهم، والوقت ليس وقت زكاة.

٨- حرص النبي ﷺ من أن يجرح شعورهم أمام الناس فيشعرون أنهم أقلُ قدراً من غيرهم بقوله: تصدقوا أو أعطوهم أو نحوها من العبارات التي قد تؤذيهم، فدخل ﷺ داره لعلَّه يجد شيئًا، والمسجد ليس فيه إلا أفراد فليس أمامه

ﷺ إلا انتظار الصلاة، وتجمُّع الناس لها، وتكمن مراعاته ﷺ لنفسياتهم بأن عرَّض بالصدقة.

قال ابن عبد البر(١) رَحِمَهُ اللَّهُ : وَسُئِلَ

أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ هَلْ يَسْأَلُ الرَّجُلُ لِغَيْرِهِ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ يَعْرِضُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ جَاءَهُ قَوْمٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ فَقَالَ: «تَصَدَّقُوا» وَلَمْ يَقُلْ: أَعْطُوهُمْ(٣).

---

(١) الإمام شيخ الإسلام، حافظ المغرب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي القرطبي المالكي، أبو عمر، من كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ أديب بحَّاثة، ولد بـ«قرطبة» سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، ورحل رحلات طويلة، وولي قضاء لشبونة وغيرها، توفي بـ«شاطبة» سنة ثلاث وستين وأربعمائة، ينظر: «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» للضبي، ترجمة رقم (١٤٤٣) (١/ ٤٨٩).

(٢) الإمام الفقيه المحدث، إمام أهل السنة، أَحْمَد بن مُحَمَّد بن حنبل بن هلال بن أسد = = الشَّيْبَانِيّ، أَبُو عَبْد اللهِ المروزي، ثم الْبَغْدَادِيّ خرج به من مرو حملًا، ووُلد ببغداد، ونشأ بِهَا، ومات بِهَا، وطاف البلاد فِي طلب العلم، ودخل الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، الشام، الجزيرة، ولد فِي سنة أربع وستين ومئة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: طلبت الحديث فِي سنة تسع وسبعين ومئة وأنا ابْن ست عشرة، وهو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعين، مات في سنة إحدى وأربعين ومئتين، يوم الجمعة في بيع الأول، وهو ابْن سبع وسبعين سنة، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي ترجمة رقم (٩٦) (١/ ١٥٧).

(٣) ينظر: «التمهيد» لابن عبد البر، (٤/ ١٢٢).

٩- استحباب جمع الناس للأمور المهمة، ووعَظهم وحثَّهم على الخير وأعمال البر، وتذكيرهم بحقِّ إخوانهم عليهم، وما يجبُ عليهم تجاههم من الإعانة والنصرة والدعاء؛ وذلك لما فعله النبيُّ ﷺ من قيامه بالخطابة في أصحابه، وحثهم على الصدقة على إخوانهم، وإن كانت الصدقة صغيرة قليلة، ولذلك قال ﷺ: «**وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**».

١٠- في هذا الموقف كذلك ظهر تفاعل الصحابة رضي الله عنهم مع أمر النبيِّ ﷺ وحثّه لهم على الصدقة على إخوانهم الفقراء، حتى وصف جرير رضي الله عنه حالهم بعد أمر النبيِّ ﷺ لهم بالصدقة قال: «فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرَّةٍ، كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجَزت، قال: ثم تتابع الناس»، وفي ذلك دلالة واضحة على حرصهم ومسارعتهم لطاعة أمر النبيِّ ﷺ، وهذه من أهم الصفات التي ميزت جيل الصحابة رضي الله عنهم.

ولله در السَّفاريني[١] رحمه الله حين قال في نظمه[٢] :

---

(١) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبو العون، عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق، ولد في سفارين (من قرى نابلس)، ورحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها، وعاد إلى نابلس فدرّس وأفتى، وتوفي فيها سنة (١١٨٨هـ)، ينظر: «الأعلام» للزِّركلي (٦/ ١٤).

(٢) ينظر: «العقيدة السفارينية»، ص (٨٨).

ولـيس في الأمـة كالصـحابة
في الفضـــل والمعـــروف
فإنهم قد شـاهدوا المختـارا
وعـاينوا الأسـرار والأنـوارا
وجاهـدوا في الله حتـى بانـا
دين الهدى وقد سـما الأديانـا
وقد أتـى في محكـم التنزيـل
مـن فضـلهم مـا يشـفي للغليـل
وفي الأحاديـث وفي الآثـار
وفي كـلام القـوم والأشـعار
مـا قـد ربـا مـن أن يحـيط
عن بعضه فاقنع وخذ عن علـم

المبحث الرابع: مراعاته ﷺ لأحوال المسافر وظروفه

لم تكن الوفود قريبة من المدينة، فكانوا يقطعون المفاوز من أجل لقائه ﷺ وتعلم الدين منه مباشرة فيصيبهم من التعب والنصب ما الله به عليم، فاللحظات التي تتلو تعب النفس ونصبها لحظات يحتاج الإنسان فيها إلى عبارات تخفف عنه آلامه وتُزيح عنه همومه، ولذا كان النبي ﷺ يستقبلهم بعبارات تنسيهم وعثاء السفر، وتُزيل عنهم نصبه، وتريح نفوسهم.

ولك أن تتأمل هذا الموقف، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لهم: «**مَنِ الْقَوْمُ أَوْ مَنِ الْوَفْدُ**»؟ قَالُوا: رَبِيعَةُ، قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ (شَهْرِ) الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ؟ وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ: بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ**»؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**»، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الْحَنْتَمِ، وَالدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُزَفَّتِ، وَرُبَّمَا قَالَ: الْمُقَيَّرِ، وَقَالَ: «**احْفَظُوهُنَّ**

وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»[(١)].

وَالدُّبَّاءُ: بِضَمِّ الدَّالِ وَبِالْمَدِّ وَهُوَ الْقَرْعُ الْيَابِسُ، أَيِ: الْوِعَاءُ مِنْهُ.

وَأَمَّا «الْحَنْتَمُ»: فَبِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ مَفْتُوحَةٍ ثُمَّ نُونٍ سَاكِنَةٍ ثُمَّ تَاءٍ مُثَنَّاةٍ مِنْ فَوْقُ مَفْتُوحَةٍ ثُمَّ مِيمٍ، الْوَاحِدَةُ حَنْتَمَةٌ، وَاخْتُلِفَ فِيهَا، فَأَصَحُّ الْأَقْوَالِ وَأَقْوَاهَا أَنَّهَا جِرَارٌ خُضْرٌ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ ثَابِتٌ فِي كِتَابِ الْأَشْرِبَةِ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَهُوَ قَوْلُ عَبْد الله بْن مُغَفَّلٍ[(٢)] الصَّحَابِيِّ ﷺ، وَبِهِ قَالَ الْأَكْثَرُونَ أَوْ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ وَغَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري، باب «أداء الخمس من الايمان»، حديث رقم (٥٣)، (١/ ٤١)، ومسلم، باب «الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَرَائِعِ الدِّينِ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ»، حديث رقم (١٧)، (١/ ٤٦).

(٢) عَبْد الله بْن مغفل بْن عَبْد غنم وقيل عَبْد نهم بْن عفيف بْن أسحم بْن رَبِيعة بْن عداء، وقيل: عدي بْن ثعلبة بْن ذؤيب، وقيل: ذويد بْن سعد بْن عداء بْن عثمان بْن عَمْرو بْن أد ابْن طابخة المزني، وولد عثمان من مزينة، نسبوا إِلَى أمهم مزينة بِنْت كلب بْن وبرة، وعمرو بْن أد هُوَ عم تميم بْن مر بْن أداً من أصحاب الشجرة، يكنى أبا سَعِيد، سكن المدينة، ثُمَّ تحول إِلَى البصرة وابتنى بها دارًا، قرب الجامع وكان من البكائين الَّذِي أنزل الله ﷻ فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [التوبة: ٩٢] الآية، وأحد العشرة الَّذِينَ بعثهم عُمَر إِلَى البصرة يفقهون النَّاس، وهو أول من أدخل من باب مدينة تستر لما فتحها المسلمون، توفي بالبصرة سنة تسع وخمسين، وقيل: سنة ستين، أيام إمارة ابْنُ زياد بالبصرة، وصلى عَلَيْهِ أَبُو برزة الأسلمي ﷺ، بوصية منه بذلك، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (١٦٦٧) (٣/ ٩٩٦).

وَأَمَّا النَّقِيرُ: فَبِالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ وَالْقَافِ، وجَاءَ فِي تَفْسِيرِهِ فِي الرِّوَايَةِ الْأَخِيرَةِ أَنَّهُ جِذْعٌ يُنْقَرُ وَسَطُهُ.

وَأَمَّا الْمُقَيَّرُ: فَبِفَتْحِ الْقَافِ وَالْيَاءِ، فَهُوَ الْمُزَفَّتُ وَهُوَ الْمَطْلِيُّ بِالْقَارِ، وَهُوَ الزِّفْتُ، وَقِيلَ: الزِّفْتُ نَوْعٌ مِنَ الْقَارِ، وَالصَّحِيحُ الأول، فَقَد صَحَّ عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: الْمُزَفَّتُ هُوَ الْمُقَيَّرُ[١].

فما مراد من أُوتي جوامع الكلم ﷺ بقوله: «**مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَىٰ**»؟

قال الأصمعي[٢]: معنى قوله «مرحبًا» لقيت رحبًا وسعة، والترحب: السعة، وتقول العرب: مرحبًا وأهلًا وسهلًا أي: لقيت أهلًا كأهلك، ولقيت سهلًا أي: سهلت عليك أمورك[٣].

---

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، (١/ ١٨٥).

(٢) عَبد المَلِك بن قُرَيب بن عَبد المَلِك بْن علي بن أصمع بن مظهر بن رياح بن عَمْرو بن عبد شمس بن أعيا بن سعد بن عبد بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد ابن قيس عيلان بن مضر بْن نزار بْن معد بْن عدنان الباهلي، أبو سَعِيد الأَصْمَعِيّ البَصْرِيّ، صاحب اللغة والنحو والغريب والأخبار والملح والنوادر، وقيل: إن قريبًا لقب، واسمه عاصم، وكنيته أبو بكر، توفي بالبصرة سنة ثلاث عشرة ومئتين، وقيل: سنة خمس عشرة ومئتين، وصلى عليه الفضل بن إسحاق، ينظر: «إكمال تهذيب الكمال» لمغلطاي، ترجمة رقم (٣٣٦١) (٨/ ٣٣٥).

(٣) «الزاهر في معاني كلمات الناس» لأبي بكر الأنباري، (١/ ١٧٣)، و«شرح صحيح البخاري» لابن بطال، باب «قول الرجل مرحبًا»، (٩/ ٣٣٤).

قَوْلُهُ ﷺ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ» مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، اسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ وَأَكْثَرَتْ مِنْهُ تُرِيدُ بِهِ الْبِرَّ وَحُسْنَ اللِّقَاءِ، وَمَعْنَاهُ: صَادَفْتُ رَحْبًا وَسَعَةً.

وقَوْلُهُ ﷺ: «غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَىٰ» الْمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ تأخر عن الاسلام ولا عناد ولا أصابكم إِسَارٌ وَلَا سَبَاءٌ وَلَا مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا تَسْتَحْيُونَ بِسَبَبِهِ أَوْ تَذِلُّونَ أَوْ تُهَانُونَ أَوْ تَنْدَمُونَ[(١)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ ابن أَبِي جَمْرَةَ[(٢)]: فِي قَوْلِهِ: مَنِ الْقَوْمُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ سُؤَالِ الْقَاصِدِ عَنْ نَفْسِهِ لِيُعْرَفَ فَيُنْزَلَ مَنْزِلَتَهُ، وَقَوْلُهُ «مَرْحَبًا» فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ تَأْنِيسِ الْقَادِمِ[(٣)].

ومن خلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- فيه استحباب قول الرجل لزواره والقادمين عليه «مرحبًا» ونحوه والثناء عليهم إيناسًا وبسطًا، وملاطفته للضيف بما يؤانسه ويجعله يطمئن إلى مضيفه، وهذا صريح فعل النبي ﷺ مع القوم، «من القوم»؟ فلما أخبروه، قال: «مرحبًا بالقوم لا خزايا ولا ندامى»، فالضيف بقدر ما تُلقي عليه من التحايا والتراحيب

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، (١/ ١٨٧).

(٢) عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، أبو محمد، من العلماء بالحديث، مالكي أصله من الأندلس، ووفاته بمصر سنة خمس وتسعين وستمائة، ينظر: «الأعلام للزركلي»، (٤/ ٨٩) .

(٣) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر، (١/ ١٣١).

المستعملة شرعًا وعرفا؛ بقدر ما تدخل عليه السرور والأنس.

٢- فيه جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا لم يخف عليه فتنة إعجاب ونحوه، وأما استحبابه فيختلف بحسب الأحوال والأشخاص.

٤- فيه أنه لا عتب على طالب العلم والمستفتي إذا قال للعالم أوضح لي الجواب ونحو هذه العبارة.

٥- تفسير النبي ﷺ الإيمان بالأقوال والأعمال الظاهرة، وهذا دليل على أن الإيمان والإسلام إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، حيث قال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ»؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، وهذا يدلُّ على أن القوم مسلمون، ففسَّر لهم الإيمان بالأقوال والأعمال الظاهرة.

٦- فيه ذكر أربعة أمور بينما المذكور في الحديث خمس: الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأداء الخمس، فكيف هذا؟ أجاب أهل العلم قالوا: القوم مسلمون وهذا يقتضي أنهم شهدوا شهادة الإسلام، نعم لا يمكن الدخول في الإسلام من غير المسلمين إلا بالشهادتين، فعلمهم أربعًا عدا الشهادتين، وهي: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأداء الخمس.

٦- لما لم يذكر الحج؟ والظاهر أنهم في سنة الوفود وهي السنة الثامنة، والحج لم يفرض بعد، وقال جماعة: إن الحجّ لم يُفرَض إلا بعد السنة الثامنة، حيث فُتِحَتْ مكة وأمن الطريق الذي لم يكن آمنًا قبل ذلك، وإنّما كان فرضه في السنة

التاسعة حيث أوفَد النبي ﷺ بعثة الحج على رأسها أبو بكر ﷺ ليؤذِّن في الناس يوم النحر: «ألَّا يحج بعد العام مُشْرِك، ولا يطوف بالبيت عُريان»، وكانت هذه البعثة تمهيدًا لحجّة النبي ﷺ حجّة الوداع في السنة العاشرة، وهي الحجّة الوحيدة التي حجها النبي ﷺ كما رواه مسلم، وفيها نزلت آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وأشهد الناسَ على أنه بلغ الرّسالة، وأمرَهم أن يبلِّغوها للعالم كلِّه.

المبحث الخامس: مراعاته ﷺ للأطفال

لم يكن الطفل محل اهتمام العرب وغيرهم، فكان لا يُلقى له بال غفلة منهم، فجاء التوجيه النبوي، والمراعاة الأبوية لهم مشعرًا إياهم أن فاقد هذا الشعور قد نُزعت منه الرحمة.

ففي الحديث أنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**»(١).

وفي روايةٍ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَتُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، باب «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته»، حديث رقم (٥٩٩٧)، (٤/ ١٨٩٨)، ومسلم، باب «رَحْمَتِهِ ﷺ بالصِّبْيَانَ وَالْعِيَالَ وَتَوَاضُعِهِ وَفَضْلِ ذَلِكَ»، حديث رقم (٢٣١٨)، (٤/ ١٨٠٨).

(٢) أخرجه البخاري، باب «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته»، حديث رقم (٥٩٩٨)، (٤/ ١٨٩٨)، ومسلم، كتاب «الفضائل»، باب «رَحْمَتِهِ ﷺ بالصِّبْيَانَ وَالْعِيَالَ وَتَوَاضُعِهِ وَفَضْلِ ذَلِكَ»، حديث رقم (٢٣١٨)، (٤/ ١٨٠٨).

ومن ثنايا هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- رحمة النبي ﷺ الواسعة لجميع الخلق، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢- أن رحمة الأولاد سبب للتعرض لرحمة الله، فأهلها مخصوصون برحمته جزاء لرحمتهم بخلقه.

٣- محبة الله للعبد، ومن ثم محبة النَّاس له.

٤- ومن أعظم فوائدها، أنَّ المُتحلِّي بها يتحلَّى بخُلُقٍ تحلَّى به رسولُ الله ﷺ.

٥- أنها ركيزةٌ عظيمة، ينبني عليها مجتمع مسلم متماسك يحس بعضه ببعض، ويعطف بعضه على بعض، ويرحم بعضه بعضًا.

٦- أنه على قدر حظِّ الإنسان من الرَّحْمَة، تكون درجته عند الله تبارك وتعالى، وقد كان الأنبياء أشدَّ النَّاس رحمة، وكان الرسول ﷺ أوفرهم حظًّا منها.

٧- أنها سبب لمغفرة الله ﷻ وكريم عفوه، كما أنَّ نقيضها سبب في سخطه وعذابه.

٨- وأيضًا من أعظم فوائدها أنَّها خلق متعدٍّ إلى جميع خلق الله ﷻ.

٩- أنها سبب للالتفات إلى ضعفة المجتمع؛ من الفقراء، والمساكين،

والأرامل، والأيتام، والكبار، والعجزة، وغيرهم.

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عُمَيْرٍ، قَالَ أَحْسِبُهُ فَطِيمٌ (فَطِيمًا) وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»(١)؟ نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، فَرُبَّمَا حَضَرَ الصَّلَاةَ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا، فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ وَيُنْضَحُ، ثُمَّ يَقُومُ وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّي بِنَا(٢).

ومن طيات هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- حسن خُلُقِه ﷺ، كما قال أنس ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا»، وتواضعه، وحُسُن مخالطته ومعاشرته للصغار.

٢- تخصيصه ﷺ لبعض رعيته بالزيارة.

٣- مداعبة النبي ﷺ للصغار، والمُزاح معهم مما يدخل السرور عليهم.

٤- جواز لعب الصغار بالطير.

٥- السؤال عن الصغار، ومعرفة أخبارهم، وكيفية أحوالهم مما يوجد عندهم

---

(١) النُّغَيْرُ: هو تصغيرُ نُغَرٍ، وهو طائرٌ يُشْبِهُ العصفورَ أحمرُ المنقارِ وتُصَغَّر نُغَيْرًا، والجمع نُغْرَان، وقال شَمِر: النَّغَرُ فَرْخ العصفورِ، وقيل: هو مِنْ صغارِ العصافيرِ تراه أبدًا صاويًا، ينظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/ ٤٢١).

(٢) أخرجه البخاري، باب «الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل»، حديث رقم (٦٢٠٣)، (٤/ ١٩٥٠)، ومسلم، باب «استحباب تحنيك المولود عند ولادته»، حديث رقم (٢١٥٠)، (٣/ ١٦٩٢).

الاعتداد بالنفس، ويساعد ذلك في تكوين شخصيتهم، وبلورتها وصقلها.

٦- جواز تكنية الصغير قبل أن يولد له.

٧- فضيلة ومنقبة عظيمة حصلت لآل أبي طلحة ﭫ؛ لأن هذا الغلام الصغير، كان والده (أبو طلحة الأنصاري زوج أم سليم الأنصارية والدة أنس ﭫ).

٨- تصغير الاسم للإنسان؛ فيه من التحبيب والتدليع وإدخال السرور عليه.

٩- فراسة النبي ﷺ حيث عرف في وجه الصغير التغير والحزن.

١٠- تسلية الصغار، والتخفيف عنهم فيما يحصل لهم من مصائب.

١١- بركة أنس ﭫ على أهل بيته؛ حيث إن خدمته للنبي ﷺ، إضافةً إلى قرابة الخئولة التي كانت فيهم كون بني النجار أخوالَ النبي ﷺ من جهة جده عبد المطلب، كانت سببًا في دخول النبي ﷺ كثيرًا إليهم، والسؤال عنهم، والجلوس في بيتهم، والنوم، والصلاة عندهم.

١٢- جواز حبس الطير بشرط أن يطعمه ويسقيه، وقد ذهب جمهور العلماء (من الحنفية والمالكية والشافعية وقول عند الحنابلة) إلى جواز اقتناء الطيور والأسماك وحبسها والاتِّجار فيها ما دام ذلك في حدود الشرع[1].

---

(١) «حاشية ابن عابدين» الحنفي (٦/ ٤٠١)، و«مواهب الجليل» لمحمد بن عبد الرحمن المغربي المالكي (٣/ ٢٢٢)، و«مغني المحتاج» للشربيني الشافعي (٤/ ٢٠٨)، و«اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (١٣/ ٣٩)، و«فتاوى إسلامية» للشيخ ابن باز

مما يدل على ذلك:

قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، وحديث أنس رضي الله عنه السابق: «يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّغَير»؟ وهو طير كالعصافير حُمْرُ المناقير، وأهل المدينة يسمونه البُلْبُل.

قال ابن حجر رحمه الله: فيه دليل على إمساك الطير في القفص[(١)].

وسئل القفال رحمه الله[(٢)] عن حبس الطيور في أقفاص لسماع أصواتها وغير ذلك؟ فأجاب بالجواز إذا تعهدها مالكُها بما تحتاج إليه؛ لأنها كالبهيمة تُربط[(٣)].

وقد أجاز العلماء ذلك بشروط، ومنها:

أ- ألا يقصد بها التفاخر والخُيَلاء، كما هو دأب المُتْرفين، (والأعمال

=

(٤/ ٤٤٩).

(١) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (١٠/ ٥٨٦).

(٢) أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل، القفال الشاشي، الفقيه الشافعي، إمام عصره بلا مدافعة، كان فقيهًا محدثًا أصوليًّا لغويًّا شاعرًا، لم يكن بما وراء النهر للشافعيين مثله في وقته، ويلقب بـ«القفال الكبير» تمييزًا له عن الإمام «القفال الصغير»، توفي سنة (٣٦٥ هـ)، ينظر: «الدر الثمين في أسماء المصنفين» لتاج الدين ابن الساعي (١/ ٢٨٦).

(٣) «حواشي الشرواني الشافعي» (٩/ ٢١٠).

بالنيات).

ب- ألا يُلهي التمتُّع بها أو الانشغال برعايتها واستثمارِها عن واجب من الواجبات.

ج- تجنب السرف والتبذير في النفقة عليها؛ لأن السَّرف محرمٌ شرعًا.

د- ألا يهمل في رعايتها بالتقصير في تغذيتها مثلاً، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**عُذِّبت امرأة في هرة سَجنتها حتىٰ ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»(١).

هـ- ألا يؤدي التمتع بها إلى تعذيبها وإيلامها.

وفي صورة أخرى يراعي النبي ﷺ الشعور النفسي لهذه الفئة المهملة عند كثيرٍ من الناس اليوم، ويضرب لنا المثل الأعلى في مراعاة هذه النفسية البريئة، فهو ﷺ لم يراعها حال اللعب، ولا في صلاة النافلة، ولا الصلاةَ منفردًا، بل في فريضة وفي جماعة، في أعظم عبادة ناصًّا ﷺ على مراعاة حالته النفسية بقوله: «**فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**».

---

(١) أخرجه البخاري، باب «أحاديث الغار» حديث رقم (٣٤٨٢) (٢/ ١٠٨٢)، ومسلم، باب «تحريم قتل الهرة»، حديث رقم (٢٢٤٢) (٤/ ١٧٦٠).

ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ[١] عَنْ أَبِيهِ شداد بن الهاد ﷺ[٢] قَالَ: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي الظهر أو العصر وهو حامل حسن أو حسين، فتقدم النبيُّ ﷺ فوضعه، ثم كبَّر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهري صلاته سجدة أطالها قال: إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننَّا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك؟ قال: «**كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته**»[٣].

---

(١) عَبد الله بْن شداد بْن الهاد، واسمه: أسامة بْن عَمْرو بْن عَبد اللهِ بْنِ جابر، وقِيلَ: خالد ابن بشر بن عتوارة بْن عامر بْن مالك بْن ليث بْن بكر بْن عَبْد مناة بْن علي بْن كنانة ابْن خزيمة بْن مدركة بْن إلياس بْن مضر بْن نزار الليثي، أَبُو الوليد المدني، كَانَ يأتي الكوفة، من كبار التابعين وثقاتهم، توفي في ولاية الحجاج على العراق سنة اثنتين وثمانين، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرّ ترجمة رقم (١٥٧٣) (٣/ ٩٢٦)، و«تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٣٣٥٠) (٥/ ٣٩٢).

(٢) شداد بن الهاد الليثي المدني، والد عَبد الله بْن شداد بْن الهاد، من بني ليث بْن بكر بْن عَبْد مناة بْن علي بْن كنانة بْن خزيمة بْن مدركة بْن الياس بْن مضر، قيل: اسمه أسامة ابْن عَمْرو، وشداد لقب، والهاد هو عَمْرو، كان حليفًا لبني هاشم، شهد الخندق، وسكن المدينة، وتحوّل إلى الكوفة، ينظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير، ترجمة رقم (٢٤٠٠) (٢/ ٦١٦)، و«تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٢٧١٤) (٤/ ٥٥١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه»، حديث رقم (٣٢٨٥٥)، (١٢/ ١٠٠)، وأحمد، حديث رقم (١٦٠٣٣)، (٢٥/ ٤١٩)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح رجاله ثقات، رجال

ومن خلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- رحمته ﷺ بالصغار، وحبه لهم، حيث كان ﷺ يعطف عليهم ويرقُّ لهم، حتى كان كالوالد لهم، يقبِّلهم ويضمُّهم، ويُلاعبهم.

٢- مراعاته ﷺ للطفل في الصلاة، وقلِّب ناظرَيْك أيها الأب، وقلِّبي ناظريكِ أيتها الأم في هذا التعبير الذي يفيض رقَّةً ورحمةً وحنانًا منه ﷺ: «ولكن ابني ارتحلني» جعله كالرَّاحلة، ركب فوق ظهره.

٣- هذا التصرُّف من ابن بنتِه ﷺ، لم يكن حديثَ تلك الساعة، ولا وليد هاتيك اللحظة؛ وإنما استنبط بعضُ أهل العلم من فعل الصبي أنَّه لو لم يكن قد اعتاد على هذا في البيت، لما تجرَّأ عليه أمامَ الناس!

٤- كم للعبِ الوالدين مع أبنائهم من أثرٍ كبيرٍ في نفوسهم؛ إذ يرون أن الفارقَ الزمني بين عمرهم وعمر آبائهم يذوب في تلك اللعبة، ويعيشون لحظةً واحدة من السعادة والفرح!

٥- على الآباء والمربين أن يراعوا ذلك، فيعطوا لصغارهم الفرصة للَّعب

=

الشيخين غير أن صحابيه لم يخرج له سوى النسائي والنسائي في «السنن الكبرى»، باب «هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة»، حديث رقم (٧٢٧)، (١/ ٢٤٣)،.....=

= والطبراني، حديث رقم (٧١٠٧)، (٧/ ٢٧١)، والحاكم، باب «وَمِنْ مَنَاقِبِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيِ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، حديث رقم (٤٧٧٥)، (٣/ ١٨١)، وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

والترويح عن أنفسهم، ولكن مع توجيههم إلى أنواع اللعب الملائمة لهم.

المبحث السادس: مراعاته ﷺ لأحوال النساء

التمهيد:

إن للنساء في ديننا منزلة عظيمة، تكفَّل الشارع الحكيم بحفظ جميع حقوقهن أمهات، وبنات، وأخوات، وزوجة واحدة أو أكثر، وملك يمين، مطيعات كنَّ أو عاصيات، وأنزل سورة باسمهن«سورة النساء»، وأخرى في أحكامهن «سورة الطلاق»، وبيَّن ذلك في آيات خاصة بهن كما في «سورة البقرة»، وما ضياع نساء المسلمين اليوم -إلا من رحم الله- إلا بسبب بُعدِهنَّ عن دين الله ﷻ، وسعيِهن وراء سرابٍ زائف أسس بنيانه إبليس في أول نتيجة معركةٍ مع أبينا آدم ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وأذكى ناره أعداء الدين والحياء، ولو علموا مافي الإسلام من خير لأتوه ولو حبوًا، ولكنهم أرادوا النعيم المقيم فضلوا عن الصراط المستقيم، في حين يرتع الغرب في ويلات الانحلال والتفكك الأسري، وضياع القيم.

أما عند حبيبنا ونبينا محمد ﷺ فلهنَّ في جميع المراتب السابقة منزلة خاصةً فقد روى أنسٌ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قوله: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ،**

وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»[١].

قال بعضهم في هذا قولان:

أحدهما: أنه زيادة في الابتلاء والتكليف حتى يلهو بما حبب إليه من النساء عما كلف من أداء الرسالة فيكون ذلك أكثر لمشاقه وأعظم لأجره.

والثاني: لتكون خلواته مع ما يشاهدها من نسائه فيزول عنه ما يرميه به المشركون من أنه ساحر أو شاعر فيكون تحبيبهن إليه على وجه اللطف به، وعلى القول الأول على وجه الابتلاء، وعلى القولين فهو له فضيلة[٢].

وقال السندي رحمه الله[٣] قيل: لينقلن عنه ما لا يطلع عليه الرجال من أحواله

---

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم (١٤٠٣٧)، (٣/ ٢٨٥)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين، غير سلام أبي المنذر، فهو صدوق حسن الحديث والبزار، حديث رقم (٦٨٧٩)، (١٣/ ٢٩٦)، والنسائي في «السنن الكبرى»، باب «حب النساء»، حديث رقم (٨٨٨٧)، (٥/ ٢٨٠)، والحاكم في «المستدرك»، باب «حبب إليَّ النساء والطيب»، حديث رقم (٢٧٣٣)، (٢/ ١٩٠)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ...= = مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» وقال الألباني: حسن صحيح، ينظر: «المشكاة» (٥٢٦١)، و«الروض النضير» (٥٣)، و«صحيح الجامع الصغير» (٣١٢٤).

(٢) سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ٧/ ٦١.

(٣) محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي: فقيه حنفي عالم بالحديث والتفسير والعربية. أصله من السند ومولده فيها، وتوطن بالمدينة إلى أن توفي بها سنة ١١٣٨هـ، الأعلام للزِّركلي ٦/ ٢٥٣.

ويستحيا من ذكره[١]، ومن جملة ذلك: أحكام الغسل والحيض والنفاس والعدة وما شابه ذلك.

وقد نقل السيوطي رحمه الله[٢] عند شرحه لهذا الحديث كلامًا نفيسًا عن السبكي رحمه الله[٣] حيث قال: السر في إباحة نكاح أكثر من أربع لرسول الله ﷺ أن الله عز وجل أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها وما يستحيا من ذكره وما لا يستحيا منه إلى أن قال : ولم يكن ذلك لشهوة منه في النكاح، ولا كان يحب الوطء للذة البشرية -معاذ الله- وإنما حبب إليه النساء لينقلن عنه ما يستحي هو من الإمعان في التلفظ به، فأحبهن لما فيه من الإعانة على نقل الشريعة[٤].

وأشار ﷺ إلى أنها خيرُ متاعِ هذه الدنيا، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»[٥].

---

(١) «سنن النسائي» بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية السندي (١/ ٤٣).

(٢) الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد السيوطي، المعروف بابن الأسيوطي، توفي في سحر ليلة الجمعة ١٩ من جمادى الأولى سنة (٩١١ هـ)، ينظر: «ذيل تذكرة الحفاظ» للحسيني الدمشقي (١/ ٦).

(٣) أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي، مفسر وفقيه وأصولي أشعري...= = شافعي، توفي سنة (٧٥٦هـ)، ينظر: «ذيل تذكرة الحفاظ» للحسيني (١/ ٢٥).

(٤) «شرح السيوطي لسنن النسائي» (٧/ ٦٤).

(٥) أخرجه مسلم، باب «خَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»، حديث رقم (١٤٦٧)، (٢/ ١٠٩٠).

يبين لنا رسولنا الكريم ﷺ أن الدنيا كلها متاع، وخير هذا المتاع الزوجة الصالحة، والله ﷻ يبيِّن في كتابه أن مِن دعاء أهل الإيمان من عباد الرحمن الحصول على الزوجة والذُّريَّة الصالحة؛ قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ومن صفات هذه الزوجة الصالحة:

١- أنها ذات دين وخلق تقوم بما أوجب الله عليها من عبادته، فتمتثل أمره وتجتنب نهيه وتقف عند حدوده، وتقوم أيضًا بما أوجب الله عليها من حقوق لزوجها.

٢- أنها تطيع زوجها في غير معصية الله ﷻ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وبطاعتها لزوجها تستقيم الحياة الزوجية بينهما، ويسعدان في حياتهما، وتقل المشاكل إن لم تختف ألبتة، وتدوم المودة وتحسن العشرة، ويعمر الزواج، ويحل التفاهم.

٣- محبتها لزوجها: وهذا الحب أحد الأسباب القوية في بقاء العلاقة الزوجية وديمومتها، وهو أمر فطري يجعله الله ﷻ في قلبي الزوجين لجعل الحياة الزوجية سعيدة هانئة مستقرة قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١].

٤- ومن صفة الزوجة الصالحة مسارعتها إلى طلب مرضاة زوجها إذا أغضبه

شيء منها.

٥- خدمة زوجها وخدمة ضيوفه في حدود المعروف، وقد كن أزواج النبي ﷺ يخدمنه ويخدمن ضيوفه.

٦- المحافظة على مال زوجها، فلا تنفق منه إلا بعلمه ولا تتصدق منه إلا بإذنه، إلا إذا كان بخيلًا فتأخذ من ماله بغير علمه بقدر حاجتها وحاجة أولادها.

٧- رعاية أولاده وتربيتهم تربية صالحة، فتنشئهم على العبادات وسائر الأخلاق الفاضلة، وذلك لكون الأب مشغولًا في طلب الكسب فلا يتفرغ لتربية أبنائه، فتتولى هي هذه المهمة وواجب عليها أن تقوم بها حق القيام؛ لأنها مسئولة، وإذا فرطت في ذلك فقد توعد الله ﷻ كل من فرط فيما استرعاه عليه بالحرمان من دخول الجنة لحديث :«**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»[1].

٨- صيانة عرضه في غيبته، فلا تتكلم فيه، ولا تحقره أمام النساء، ولا تقلل من قيمته ومكانته ورجولته، ولا تتخذه مهزأة تسخر منه، وتجعله أضحوكة للنساء، ولا تفشي له سرًّا.

---

(١) أخرجه البخاري، باب «من أسترعي رعية فلم ينصح»، حديث رقم (٧١٥٠) (٤/ ٢٢٣٤)، ومسلم، باب «استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار»، حديث رقم (١٤٢) (١/ ١٢٥).

٩- إعانته على فعل الخير من بر وصدقة وإحسان ودعوة ومشورة ونحو ذلك، وخير مثال على ذلك أزواج النبي ﷺ.

وأوصى أمته بهن في أعظم مشهد، وأكبر مجْمع حضره خلقٌ لا يحصيهم إلا الله، فَعَنْ عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ رضي الله عنه [١] قال: شَهِدت حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَّرَ وَوَعَظَ، ثُمَّ قَالَ: «**استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك**»[٢].

قوله ﷺ: «**استوصوا بالنساء**» أي: اقبلوا وصيتي في النساء، واعملوا بها، فاصبروا على ما قد يصدر منهن، وارفقوا بهنَّ، وأحسنوا إليهنَّ[٣].

ولتخصيص النساء بالوصاة حِكمٌ بالغة:

ومنها كما يقول ابن الجوزي رحمه الله[٤]: وإنما خص النساء بالذكر لضعفهنَّ

---

(١) عَمْرو بن الأَحوص الجشمي رضي الله عنه، والد سُلَيْمان ابن عَمْرو بْن الأَحوص، لَهُ صحبة، شهد مع النبي ﷺ حجة الوداع، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٤٩٥١) (٧/ ٥٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي، باب «ما جاء في حق المرأة»، حديث رقم (١١٦٣)، (٢/ ٤٥٨)، وابن ماجه، باب «حق المرأة على زوجها»، حديث رقم (١٨٥١)، (١/ ٥٩٤)، والنسائي في «السنن الكبرى»، حديث رقم (٩١٢٤)، (٨/ ٢٦٤)، وقال الألباني: «صحيح»، انظر حديث رقم: (٦٥٠٤) في «صحيح الجامع»، والحديث صحيح.

(٣) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي العباس القرطبي (٤/ ٢٢٢)، و«الميسر في شرح مصابيح السنة» للتوربشتي (٣/ ٧٦٦).

(٤) ابْن الْجَوْزِيّ، الإِمَام الْعَلامَة الْحَافِظ، عَالم الْعرَاق، وواعظ الْآفَاق، جمال الدّين أَبُو الْفرج

واحتياجهن إلى من يقوم بأمورهنَّ»[١]، وفي هذا أوضح دليل وأقوم برهان على عناية الإسلام بالمرأة والحفاظ عليها.

قوله : «**استوصوا بالنساء خيرًا**» أي: فليوص بعضكم إلى بعض بأن يفعل بالنساء خيرًا، وأن يحسن المعاشرة معهن.

قال القاضي: الاستيصاء: قبول الوصية، والمعنى: أوصيكم بهن خيرًا، فاقبلوا وصيتي فيهن.اهـ

قوله : «**فإنهن عندكم عوانٍ**» -جمع عانية- بمعنى: الأسيرة؛ نظير جوارٍ وجارية؛ أي: أسيرات محبوسات عندكم لا يقدرن على الخروج إلَّا بإذنكم؛ كالأسير المحبوس في يدِ مَنْ أسره (ليس) الشأن (تملكون منهن شيئًا غير ذلك) الاستمتاع[٢].

وفي الحديث الآخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ**

=

عبد الرَّحْمَن بن عَليّ بن عبد الرَّحْمَن بن عَليّ بن عَليّ بن عبد الله الْقرشِي الْبكْرِيّ الصديقي الْبَغْدَادِيّ الْحَنْبَلِيّ الْوَاعِظ، مَاتَ يَوْم الْجُمُعَة ثَالِث عشر رَمَضَان سنة سبع وَتِسْعين وَخَمْسمِائَة، ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٥/ ٤٥٥).

(١) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» لابن الجوزي (٣/ ٤٧٨).

(٢) «حاشية السندي على سنن ابن ماجه»، «كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه» (١/ ٥٦٨).

ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»[١].

في الحديث أمرٌ للأزواج والآباء والإخوة أن يستوصوا بالنساء خيرًا، وأن يحسنوا إليهن، كما يبيّن الحديث أن أصل خلق المرأة من ضلع؛ مما يشير إلى احتمال ظهور بعض الاعوجاج فيها، فلا ينبغي للرجل أن يحملها على عقله، ولا يكلفها مقتضيات كل رأيه، بل يحسن معاشرتها، مستوصيًا بها خيرًا، ويكون في ذلك كالراحم لها، فيبتني أمرها على المسامحة والرفق.

وقد أشار بعض العلماء إلى أن الحديث يدلّ على تشريف المرأة وتكريمها؛ ذلك أن المعنى في خلق المرأة من ضلع يناسب الوظيفة التي خلقها الله تعالى لها، وهي الحنو والعطف على الزوج والولد، وهذا الوصف هو أعلى ما فيها من حيث الرفعة، وعليه يكون وصف خلق المرأة من ضلع على سبيل التشريف والتكريم لها، وهو ما يتناسب تمامًا مع الوصية بالإحسان إليها وملاطفتها، والتغاضي عما قد يصدر منها[٢].

(١) أخرجه البخاري، باب «خلق آدم وذريته» حديث رقم (٣٣٣١)، (٢/ ١٠٢٤)، ومسلم، باب «الوصية بالنساء»، حديث رقم (١٤٦٨)، (٢/ ١٠٩٠).

(٢) «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٧/ ١٦٠).

المطلب الأول: مراعاته ﷺ للأم

التاريخ لا يعرف دينًا ولا نظامًا كرَّم المرأة باعتبارها أمًّا مثلما جاء به الإسلامُ الذي رفعَ مكانتها، وحماها ورعاها، وجعل برّها من أصول الفضائل، وجعل حقَّها أعظمَ من حقِّ الأب؛ لما تحمّلته من مشاق الحمل والولادة والإرضاع والتربية، وهذا ما يقرّره القرآن الكريم ويكرّره في أكثر من سورة.

والأمومة عاطفة خصصت بها الأنثى تدفعها إلى غدق وافر من الرحمة والشفقة تمنح الأمهات بدون مقابل، هي مصدر الحب والحنان، ومنبع الإحسان، هي الروح في كل مكان وزمان، هي النور الذي يمنحنا الأمن، في المهد تتحمل الصرخات والسهر والمعاناة.

وقد نوّه القرآن الكريم وأوصى بالأم، وأشاد بتلك المجهودات المضنية التي تتطلب من الأم الحنان والصبر والتضحية والرفق، وأمر بإكرامها وطاعتها في غير معصية، وحسن معاملتها والحفاظ على كينونتها والإحسان إليها، قال الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ – ١٥]، وقال ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

﴿إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

فالإحسان إليهما مظهر من المظاهر الاجتماعية للعبادة، وبعبارة (أف) يكون إفسادًا لهذه العبادة، قال الله ﷻ:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أَيْ: «قَاسَتْ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ حَمْلِهِ مَشَقَّةً وَتَعَبًا، مِنْ وِحَام، وَغَشَيَانٍ، وَثِقَلٍ، وَكَرْبٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَنَالُ الْحَوَامِلُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أَيْ: بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنَ الطَّلْقِ وَشِدَّتِهِ»[1].

هذه هي الأم في دين الله ﷻ، وهذا هو القرآن الكريم يصف معاناتها، ويأمر ولدها بالإحسان إليها، ويقرن شكره ﷻ بشكرها -بواو العطف- دون تراخي، حتى لو أمرته أن يشرك بالله، وليس الأمر مرة واحدة ولكن عبَّر عنه بلفظ «جَاهَدَاكَ» إشعار بالمجاهدة في الطلب، المرة تلو المرة من غير كلل، ولا ملل، ولا يأس، ومع ذلك كله يأمر بصحبتها في الدنيا بالمعروف.

وأما إن كانت مؤمنة فهذه لها شأن آخر، من خالف فيها أمر الله ﷻ فقد خسر الدنيا والآخرة، قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٨٠).

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ – ٢٤].

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الله ﷻ تَرْبِيَةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَمَشَقَّتَهَا فِي سَهَرِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا؛ لِيُذَكِّرَ الْوَلَدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ، فلَا يُسْمِعهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا، وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّءِ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أَيْ: وَلَا يَصْدُرْ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ، كَمَا قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ

(١) فِي قول الله ﷻ : ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أَيْ: لَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَى وَالِدَيْكَ.

وَلَمَّا نَهَاهُ عَنِ الْقَوْلِ الْقَبِيحِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ، أَمَرَهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْفِعْلِ الْحَسَنِ فَقَالَ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أَيْ: لَيِّنًا طَيِّبًا حَسَنًا بِتَأَدُّبٍ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أَيْ: تَوَاضَعَ لَهُمَا بِفِعْلِكَ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أَيْ: فِي كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢).

وهذا موقف بلغت مراعاةُ النبي ﷺ مشاعر أمته، إلى مشاركة الأم

(١) عطاء بن أَبي رباح، واسمه أسلم القرشي، الفهري، أبو محمد المكي مولى آل أبي خثيم، عامل عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مكة، ويُقال: مولى بني جمح، ولد في خلافة عثمان ابن عفان، انتهت فتوى أهل مكة إليه، كان ثقة فقيهًا عالمًا كثير الحديث، مات سنة أربع عشرة ومئة، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٤٥٦٠) (٧/ ١٣٨).

(٢) «تفسير ابن كثير»، (٥/ ٦٤).

أحاسيسها الداخلية، نعم يراعي حالتها النفسية من أجل طفلها، وحتى لا يشتد عليها الأمر، يخفف ﷺ صلاته مع عزمِه على إطالتها، لأن بالها مشغول مع فلذة كبدها، فصلاتها في وادٍ وهي في وادٍ آخر فيُعجِّل لها، ولكل من حضر الصلاة، وأولهن الأم.

ففي الحديث عَنْ أَبِي قَتَادَةَ[١] ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمِّهِ**»[٢].

وفي رواية أوضح منها، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ فَأُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ؛ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**»[٣].

---

(١) أَبُو قتادة الأَنْصارِيّ، صاحب رَسُول اللهِ ﷺ وفارسه، قِيلَ: اسمه الحارث بْن ربعي، وقيل: النعمان بْن ربعي، وقيل: عَمْرو بْن ربعي، والمشهور: الحارث بْن ربعي بْن بلدمة بن خناس بْن سنان بْن عُبَيد بن عدي بن غنم بن كعب بْن سلمة السلمي المدني، شهد أُحُدًا والخندق، وما بعد ذلك من المشاهد مع رَسُول اللهِ ﷺ مات بالمدينة سنة أربع وخمسين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ترجمة رقم (٦٩٥) (٤/ ٣٧٨)، و«تهذيب الكمال» ترجمة رقم (٨٢٠٨) (١١/ ٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري، باب «خروج النساء إلى المساجد»، حديث رقم (٨٦٨)، (١/ ٢٦١)، ومسلم، باب «تخيف الصلاة لبكاء الصبي»، حديث رقم (٤٧٠)، (١/ ٣٤٣).

(٣) نفس المراجع السابقة.

تأملوا في هذا الكلام الذي لا يقوله أكبر استشاري في علم النفس، أيُّ قلبٍ يحمله الحبيب ﷺ يدخل في الصلاة بنيةٍ، ثم يغيِّر هذه النيةَ بمجرد سماعه لذلك البكاء الذي يصدر من الصبي، إحساس مُرهف، وقلب مُفعم بالحب والرأفة، والشفقة، وإذا كان شأن الصلاة عظيمًا وهي صلة بين العبد وربه فإن مراعاة حال المصلين أو من تعلَّق بهم مدعاة لاختصار هذا الاتصال؛ لئلا تقع النفس في صراع بين أمرين: تعظيم قدر الصلاة، وقوة العاطفة الأبوية حين يبكي صغيرها.. فهذا التفاعل منه ﷺ مع الموقف يؤكِّد لنا مدى الرحمة التي تحلَّى بها ﷺ لتكون مظهرًا يقتدي به.

المطلب الثاني: مراعاته ﷺ للبنت

تُعتبر المرأة في الجاهلية من سقط المتاع، أما البنت فذاك الأمر الذي لا يُطاق عندهم، ولا يُحتمل حتى يظهر أثر ذلك على وجوههم ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ – ٥٩].

وجاء نبينا ﷺ فأبطل هذه العادات الجاهلية؛ لتحتل تلك البنت مكانتها العالية، وتضع قدمها على طريق الأمان.

ففي الحديث عَنْ عائشة ﵂ أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كلَّ واحدةٍ منهما تمرة، ورفعت إلى فِيهَا تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعتُ لرسول الله ﷺ فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار**»[1]؛ لأنها لما رحمتهما هذه الرحمة العظيمة أوجب الله لها بذلك الجنة.

فدلَّ ذلك على أن ملاطفة الصبيان والرحمة بهم من أسباب دخول الجنة

(١) أخرجه مسلم، باب «فضل الإحسان إلى البنات»، حديث رقم (٢٦٣٠) (٤/ ٢٠٢٧).

والنجاة من النار.

ما أقصرَ الخبر! وأكثرَ العبر!

وإليك بعضًا منها:

أولًا: عظمة كرم الله ﷻ، فقد أوجب لها الجنة وأعتقها من النار بثلاث تمرات! فسبحان الكريم الشكور، الرحيم الغفور.

ثانيًا: تسلية الفقراء، فهذا بيت خير البشر يمر به أوقات يكون خاليًا من الطعام أو شبه خال! والله المستعان، ويا ترى أليست أغلبية من يرى نفسه اليوم فقيرًا في مجتمعنا يزيد الطعام عن حاجته كثيرًا؟! بل ربما ألقى زائد الطعام؟!

ثالثًا: كرم عائشة رضي الله عنها وإيثارها للسائلة وابنتيها، والإيثار أعلى درجات الجود، قال ﷻ مادحًا الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

رابعًا: عدل هذه المرأة وإنصافها بل وإيثارها على نفسها؛ فقد أعطت لكل بنت تمرة ولها تمرة، ومن المعلوم أن الكبير يحتاج طعامًا أكثر، ومع ذلك قسَّمت لنفسها كما لهنّ، ثم لمّا طلبن نصيبها شقت التمرة بينهما!

خامسًا: شدة رأفة الأم التي عظَّم الله ﷻ شأنها بوجوب برها.

سادسًا: ألا يحقر المسلم من الخير شيئًا، وفي التنزيل قول الله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقد يكون في عملك اليسير

سعادتك في الدنيا والآخرة.

سابعًا: شدَّةُ حرصِ عائشةَ ﵂ على الصَّدقة، وتأمل آيات القرآن وأحاديث السنة ترى كثافة ترغيب الإسلام بهذه العبادة!

ثامنًا: أن السعادة وطمأنينة القلب ليست مرتبطة بالترف والغنى.

تاسعًا: رحمة الصغير وتقدير جوعته، وتفهم براءة الطفولة، والراحمون يرحمهم الرحمن، والصغار يعلَّمون ولا يعنَّفون.

عاشرًا: أن الجنة قد تحصل بعمل خير لم يرِد به نص، فهذه المرأة حصل لها هذا الفضل بعد فعلها، قالت عائشة ﵂ : فأعجبني شأنُها، فذكرتَ الذي صنعتْ لرسولِ اللهِ ﷺ فقال: «**إنَّ اللهَ قد أوجب لها بها الجنةَ أو أعتقَها بها من النَّارِ**».

الحادي عشرة: أن النفقة على البنات والسعي على شأنهن من أفضل أعمال البر المنجية من النار.

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**مرحبا بابُنَتِّي**»، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثًا فبكت، فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى قبض النبيُّ ﷺ فسألتها، فقالت: أسرَّ إليَّ «**إن جبريل كان يعارضني القرآن كل**

سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي»، فبكيت، فقال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة أهل الجنة أو نساء المؤمنين**»، فضحكت لذلك[1].

ومن طيات هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ بثلاثة غيوب هي:

أولُها: اقترابُ أجله، وقد مات ﷺ في تلك السنة.

وثانيها: إخبارُه ببقاء فاطمة رضي الله عنها بعده، وأنها أولُ أهل بيته وفاة، وقد توفيت بعده ﷺ بستة أشهر فقط، فكانت أولَ أهل بيته وفاة.

وثالثها: أنها سيدةُ نساء أهل الجنة رضي الله عنها.

قال النووي رحمه الله: «هذه معجزة ظاهرة له ﷺ، بل معجزتان، فأخبر ببقائها بعده، وبأنها أول أهله لحاقًا به، ووقع كذلك، وضحكت سرورًا بسرعة لحاقها».

٢- وفيه أن المرء لا يحب البقاء بعد محبوبه، قال ابن عمر رضي الله عنهما في أخيه عاصم:

فَإِنْ تَكُ أَحْزَانٌ وَفَائِضُ دَمْعَةٍ
جَرَيْنَ دَمًا مِنْ دَاخِلِ الْجَوْفِ مُنْقَعَا

---

(١) أخرجه البخاري، باب «علامات النبوة في الإسلم»، حديث رقم (٣٦٢٤) (٣/ ١١٧)، مسلم، باب «فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ»، حديث رقم (٢٤٥٠)، (٤/ ١٩٠٤).

تَجَرَّعْتهَا فِي عَاصِمٍ وَاحْتَسَبْتهَا
فَأَعْظَمُ مِنْهَا مَا احْتَسَى وَتَجَرَّعَا
فَلَيْتَ الْمَنَايَا كُنَّ خَلَّفْنَ عَاصِمًا
فَعِشْنَا جَمِيعًا أَوْ ذَهَبْنَ بِنَا مَعَا
دَفَعْنَا بِك الْأَيَّامَ حَتَّى إذَا أَتَتْ
تُرِيدُك لَمْ نَسْطِعْ لَهَا عَنْك مِدْفَعَا[1]

٣- وفيه حب النبي ﷺ لفاطمة ابنته رضي الله عنها.

٤- وفيه أنه ﷺ لم يتحمل بكاءها وحالتها النفسية، فطيَّب نفسها مباشرة بأنها ستكون أول أهله لحاقًا به ﷺ فضحكت، وذهب عنها ما وجدت في نفسها بادئ الأمر.

(١) هذه الأبيات نسبها القرافي لابن عمر رضي الله عنهما في رثاء أخيه عاصم بن عمر رضي الله عنهما.

المطلب الثالث: مراعاته ﷺ للأخت

إن للعلاقات الاجتماعية، والروابط الأُسرية في الإسلام مقامًا عظيمًا، وعنايةً كبيرةً، ومن أوصاف النبي ﷺ التي وصفتْه بها خديجة رضي الله عنها إبان نزول الوحْي عليه قولُها رضي الله عنها: «كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ»(١).

ومن عظيم ما يدلُّ على أهميَّتها أنَّ الأمر بها مَقْرونٌ بالأمر بالتوحيد، كما أنَّ النهي عنها مقرونٌ بالنهي عن الشِّرْك؛ ففي العهْد المكي، وقبل أن يجهرَ النبيُّ ﷺ بالدعوة، وما آمنَ به إلَّا قليل أخبر النبي ﷺ أن الله ﷻ أرسله بصلة الرحم وكسر الأوثان فقال ﷺ: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**»(٢).

والأخوَّة تكون في الدِّين، وتكون في النَّسَب، وتكون في الرضاع، وكل أخوَّةٍ عداها فهي من اختراع الناس، ولا اعتبار لها في شرْع الله ﷻ، وأعلاها أخوَّةُ الإسلام، وإذا اجتمعتْ معها أخوَّةُ النسب، كان لصاحبها من الحقوق ما ليس لغيره.

---

(١) أخرجه البخاري، باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله»، حديث رقم (٣) (١/ ٧)، ومسلم، باب «باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ»، حديث رقم (١٦٠) (١/ ٩٧).

(٢) أخرجه مسلم، باب «باب إسلام عمرو بن عبسة»، حديث رقم (٨٣٢) (٢/ ٢٠٨).

وفي الحديث عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ بَنَاتٍ، أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ أَخَوَاتٍ، حَتَّىٰ يَبِنَّ أَوْ يَمُوتَ عَنْهُنَّ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ**» وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى(١).

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ (٢): أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ ﴿**فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ**﴾ [البقرة: ٢٣٢]، قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا، لَا وَاللهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ**﴾ [البقرة: ٢٣٢]، فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، باب «فِي الْعَطْفِ عَلَى الْبَنَاتِ»، حديث رقم (٢٥٩٤٣)، (٨/ ٣٦٢)، وأحمد، واللفظ له، حديث رقم (١٢٤٩٨)، (١٩/ ٤٨١)، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، والبخاري في «الأدب المفرد»، حديث رقم (٧٦)، (١/ ٤١)، وأبو داود، حديث رقم (٥١٤٧)، (٤/ ٣٣٨)، والترمذي، باب «مَا جَاءَ فِي النَّفَقَةِ عَلَى البَنَاتِ وَالأَخَوَاتِ»، حديث رقم (١٩١٢)، (٣/ ٣٨٢)، والحديث صحيح، وابن ماجه، حديث رقم (٣٦٦٩)، (٢/ ١٢١٠).

(٢) مَعْقِلُ بنُ يَسَارِ بنِ عبد اللهِ بن مِعْيَرٍ، الْمُزَنِيُّ، أبو عَلِيٍّ، على المشهور، صحابيٌّ ممن بايع تحت الشجرة ﷺ، ونَزَلَ البصرةَ، وهو الذي ينسب إِليه نَهْرُ مَعْقِلٍ بالبَصْرَةِ، مات بعد ٦٠، لـه ٣٤ حديثًا، اتفقا على حديث، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بحديثين. ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ترجمة رقم (٢٨٣٢) (٧/ ١٠)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (٢٤٦٤) (٣/ ١٤٣٢).

قَالَ: فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ[١].

ومن دلائل عناية الإسلام بالأخت أن علَّم إخوانهن من الرجال التضحية من أجلهن، حتى وإن كان هذا على حساب سعادة هذا الأخ ورغباته.

هذا جابر بن عبد الله ﷺ، يموت أبوه شهيدًا يوم أحد، ويترك له تسع بنات أخوات! لا عائل لهن إلا جابرًا، فماذا فعل هذا الصحابي الجليل ﷺ بأخواته؟ ففي الحديث عن جابر بن عبد الله ﷺ قال :غزوت مع رسول الله ﷺ، قال: فتلاحق بي النبي ﷺ وأنا على ناضح لنا قد أعيا، فلا يكاد يسير فقال لي: «**ما لبعيرك**»؟ قال: قلت: عيي، قال: فتخلف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبل قدامها يسير، فقال لي: «**كيف ترى بعيرك**»؟ قال: قلت: بخير قد أصابته بركتك، قال: «**أفتبيعنيه**»؟ قال: فاستحييت ولم يكن لنا ناضح غيره، قال: فقلت: نعم، قال: «**فبعنيه**»، فبعته إياه على أن لي فقار ظهره حتى أبلغ المدينة، قال: فقلت: يا رسول الله إني عروس، فاستأذنته فأذن لي، فتقدمت الناس إلى المدينة حتى أتيت المدينة، فلقيني خالي فسألني عن البعير، فأخبرته بما صنعت فيه، فلامني، قال: وقد كان رسول الله ﷺ قال لي حين استأذنته: «**هل تزوجت بكرًا أم ثيبًا**»؟ فقلت: تزوجت ثيبًا، فقال: «**هلَّا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك**»؟ قلت: يا رسول الله توفي والدي أو استشهد ولي أخوات صغار، فكرهت أن

(١) أخرجه البخاري، باب «باب من قال لا نكاح إلا بولي»، حديث رقم (٥١٣٠) (٤/ ٦٠).

أتزوج مثلهن فلا تؤدبهن ولا تقوم عليهن، فتزوجت ثيبًا لتقوم عليهن وتؤدبهن، قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوت عليه بالبعير فأعطاني ثمنه وردَّه عليَّ[1].

فانظر وتأمل إلى هذا الفكر الراقي الذي طبَّقه جابر رضي الله عنه، لقد ضحى بحقِّه في الزواج ببكر، وتزوَّج ثيبًا، من أجل أخواته، تدبر قوله: «فتزوجت امرأة تقوم عليهن وتصلحهن»، إنه لم يكن له هدف من الزواج في المقام الأول إلا القيام على راحة أخواته، ولم يكن همُّه من الزواج إسعاد نفسه، بقدر تفكيره في إسعاد أخواته، فمن يطبق هذا الفكر السهل الممتنع في زماننا هذا؟ ومن يؤثر أخواته على نفسه في عصرنا هذا؟

(١) أخرجه البخاري، باب «استئذان الرجل الإمام»، حديث رقم (٢٩٦٧) (٢/ ٩١٣)، ومسلم، باب «بيع البعير واستثناء ركوبه»، حديث رقم (٧١٥) (٣/ ١٢٢١).

المطلب الرابع: مراعاته ﷺ للزوجات

وهُنَّ على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مراعاته ﷺ لعموم الزوجات

لم تعرف المرأة في حياتها وتاريخها كله معاني الاحترام والتقدير والتكريم على النحو الذي عرفته على يد النبيِّ الكريم ﷺ في بيته ومع نسائه.

فما أروع صور الملاطفة والحب والحنان في معاملة زوجاته!

وكان النبي ﷺ حريصًا على أن يعامل رجال أمته زوجاتهم بمثل ما يعامل به زوجاته ﷺ، كما أن من وصاياه النبوية في التعامل مع النساء وصيته المباشرة بهن في حجة الوداع.

فَعَنْ عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ رضي الله عنه قَالَ: أَنَّهُ شَهِدَ حَجَّةَ الوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَّرَ، وَوَعَظَ، فَذَكَرَ فِي الحَدِيثِ قِصَّةً، فَقَالَ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي، باب «ما جاء في حق المرأة»، حديث رقم (١١٦٣)، (٢/ ٤٥٨)، وابن ماجه، باب «حق المرأة على زوجها»، حديث رقم (١٨٥١)، (١/ ٥٩٤)، والنسائي في «السنن الكبرى»، حديث رقم (٩١٢٤)، (٨/ ٢٦٤)، وقال الألباني: «صحيح»، انظر حديث رقم (٦٥٠٤) في «صحيح الجامع»، والحديث صحيح.

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**عِنْدَكُمْ عَوَانٍ**» يعني: أسرى في أيديكم، فأين نحن من تعامل رسولنا ﷺ مع زوجاته وما أحوجنا الى الاقتداء بسنته ﷺ؟

ففي الحديث: الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس، وتأليف القلوب، وفيه السياسة مع النساء بأخذ العفو عنهن، والصبر على عوجهن، وأن من رام تقويمهن فاته الإنتفاع بهن مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها، ويستعين بها على معاشه، فكأنه قال: الاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها(١).

ولنا في سيرة الحبيب ﷺ **مع زوجاته أرقىٰ معاني الحب**، ومن طالع سيرة النبي ﷺ يجد في سيرته مثالًا يحتذى، فقد كان يسامر زوجاته ويؤنسهن ويدخل السرور في قلوبهن، وكان يداعبهن ويلاعبهن حتى كان يرسل الهدايا لصديقات السيدة خديجة رضي الله عنها.

ومن الرقة والحب حسن المناداة، فقد كان ﷺ ينادي عائشة يا عائش؛ ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: «**يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام**»، فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ(٢).

وربما وضع خدَّه على خدِّها ويدَه بيدِها وكان يضع رأسها على منكبيه.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري، باب «فضل عائشة رضي الله عنها»، حديث رقم (٣٧٦٨) (٣/ ١١٥٤)، ومسلم، باب «فضل عائشة رضي الله عنها»، حديث رقم (٢٤٤٧) (٤/ ١٨٩٦).

وورد عنه ﷺ أنه وضع رأسه بجوار ميمونة ﵂.

وربما كان ينام في حجر زوجاته.

وقد أردف صفية ﵂ خلف ظهره.

وهذه كلها لمسات حانية في حياته ﷺ.

وكان يجلس بجوار نسائه، وربما وضع فمه على موضع شرابهن، وهن يبادلنه ذلك.

وكان يتزين لهن عند اللقاء.

وكان ﷺ يدهن رأسه، ولم يُر منه شيء قبيح في حياته.

وكان يسرح لحيته ويتطيب ويغتسل معهن.

وكان لا يفاجئ زوجاته حتى يستعددن له.

وكان يراعي مشاعرهن حتى عند النوم يخفض صوته أو حركته.

فعن محمد بن قيس بن مخرمة بن المطلب أنه قال يومًا : ألا أحدثكم عني وعن أمي، قال: فظننا أنه يريد أمه التي ولدته، قال: قالت عائشة ﵂ : ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ؟ قلنا: بلى، قال: قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب، فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدتُ، فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدًا، فجعلت درعي في

رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: «**ما لك يا عائش حشيا رابية**»؟ قالت: قلت لا شيء، قال: «**لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير**»، قالت: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فأخبرته، قال: «**فأنت السواد الذي رأيت أمامي**»؟ قلت: نعم، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: «**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله**»؟ قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم، قال: «**فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم**»، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: «**السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**»(١).

قوله: «**يَا عَائِش**» يَجُوز فِي «عَائِش» فَتْح الشِّين وَضَمّهَا، وَهُمَا وَجْهَانِ جَارِيَانِ فِي كُلّ الْمُرَخَّمَات.

(١) أخرجه مسلم، باب «ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها»، حديث رقم (٩٧٤) (٢/ ٦٦٩).

وَفِيهِ: جَوَاز تَرْخِيم الِاسْم إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِيذَاء لِلْمُرَخَّمِ.

قوله: «**حَشْيَا**» بِفَتْحِ الْحَاء الْمُهْمَلَة وَإِسْكَان الشِّين الْمُعْجَمَة مَقْصُور مَعْنَاهُ: وَقَدْ وَقَعَ عَلَيْك الْحَشَا وَهُوَ الرَّبْو وَالتَّهَيُّج الَّذِي يَعْرِض لِلْمُسْرِعِ فِي مَشْيه وَالْمُحْتَدّ فِي كَلَامه مِنْ اِرْتِفَاع النَّفْس وَتَوَاتُره، يُقَال: اِمْرَأَة حَشْيَاء وَحَشْيَة وَرَجُل حَشْيَان وَحَشَش، قِيلَ: أَصْله مَنْ أَصَابَ الرَّبْو حَشَاهُ.

قوله: «**رَابِيَة**» أَيْ: مُرْتَفِعَة الْبَطْن.

قَوْلهَا: «**فَلَهَدَنِي**» هُوَ بِفَتْحِ الْهَاء وَالدَّال الْمُهْمَلَة، وَرُوِيَ «فَلَهَزَنِي» بِالزَّايِ وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ، قَالَ أَهْل اللُّغَة: لَهَدَهُ وَلَهَّدَهُ بِتَخْفِيفِ الْهَاء وَتَشْدِيدهَا أَيْ: دَفَعَهُ، وَيُقَال: لَهَزَهُ إِذَا ضَرَبَهُ بِجَمْعِ كَفّه فِي صَدْره، وَيَقْرَب مِنْهُمَا لَكَزَهُ وَوَكَزَهُ[1].

ولنا في هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

أولها: إشعار زوجاته بحبه لهن وقربه منهن.

وثانيها: إعلان حبه ﷺ لزوجاته بين الناس وعلى الملأ، فقد كان يقول ﷺ عن خديجة: «**إني رزقت حبَّها**»، كما في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإني لم أدركها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلىٰ أصدقاء خديجة**» قالت: فأغضبته

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، للنووي (٣/ ٤٠١).

يومًا، فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني قد رزقت حبها**»(١).

وسُئِلَ من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة»، كما في الحديث عن أبي عثمان: أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، قلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثم مَن؟ قال: «**عمر**»، فعدَّ رجالًا، فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم(٢).

ثالثها: اهتمامه بأهله وود زوجاته، فكان إذا ذبح الشاة قال أرسلوها إلى صديقات خديجة.

رابعها: استخدام أسلوب المدح لهن، قال ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، فعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمُل من الرجال كثير ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضلَ عائشةَ علىٰ النساءِ كفَضل الثَّريد علىٰ سائر الطعام**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم، باب «فضائل خديجة أم المؤمنين ﵂»، حديث رقم (٢٤٣٥) (٤/ ١٨٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، باب «غزوة ذات السلاسل»، حديث رقم (٤٣٥٨) (٣/ ١٣١٦)، مسلم، باب «فضل أبي بكر الصديق ﵁»، حديث رقم (٢٣٨٤) (٤/ ١٨٥٦).

(٣) أخرجه البخاري، باب قول الله ﷻ ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، حديث رقم (٤٣١١) (٢/ ١٠٥٨)، ومسلم، باب «فضائل خديجة أم المؤمنين »، حديث رقم (٢٤٣١) (٤/ ١٨٨٦).

خامسها: كان يظهر السرور لمن يذكره بهن.

سادسها: الدعاء لهن.

القسم الثاني: مراعاته ﷺ للجارية الصغيرة

ليس مِن شكٍّ في أن رسول الله ﷺ هو المثَل الأعلى في الخلُق العظيم وجميع الكمالات، والقدوة الحسَنة لمَن كان يرجو الله واليوم الآخَر، وهو الذي تولى الله تهذيبه وأحسن تأديبه؛ ليُعطيه مقاليد الرسالة العامة، ويُكمِل به عقد النبوَّة.

ولا بدَّ لهذا الإصلاح الشامل والدعوة إلى الحق مِن تألُّف القبائل والعشائر، واستِمالة الأفئدة، واستِهواء العُقول، وحسْن المُعامَلة، والتودُّد إلى الناس، وإن الزواج لَمِن أعظم الروابط الإنسانية التي تزرَع المودَّة، وتجمَع النفوس على المحبَّة، وبه تكون المُناصَرة والمؤازَرة، وتَنكشِف خبايا النفوس فتتميز الأُسَر والبُيوتات.

ولم يَعرِف التاريخ مُصلِحًا أفضلَ خلُقًا، ولا أحسنَ معامَلةً، ولا قائدًا أعلى أدبًا وأعظم سياسةً من رسول الله ﷺ.

وقد أوضح هذا المعنى وأكَّده في أذهان العرب المُعترِفين بفضله وشمائله مِن قبل زواجه بالعدد الكثير مِن النساء، ما بين قرشيَّة وإسرائيليَّة، وابنتَي أوفى أصدقائه أبي بكر وعُمر رضي الله عنهم وابنة أعدى أعدائه أبي سفيان الذي أسلم مِن بعْد، فلم تُحفَظ له هَفوة، ولم تؤخَذ عليه زلَّة، بل كان في بيته الأسوةَ الصالِحة للزوج

الصالح في الوفاء وحسْن العِشرة، والرِّفق والتكريم والمؤانَسة واللُّطف، واحتِمال ما يبدو منهنَّ مِن الغضب والغيرة والإيذاء، ومقابَلة ذلك كله بالحِكمة والصفح الجميل، وتلك بعض الشواهد لذلك.

وقد كان لعائشة رضي الله عنها مِن قلب رسول الله ﷺ وحبِّه البالغ ما لم يكن لغيرها، ومع ذلك لم يُفضِّل بعضهن على بعض في القسَم أو المَبيت أو النفقة أو غير ذلك مما هو داخل في حدود إرادته الشريفة، وكان يَطوف عليهنَّ جميعًا فيَدنو مِن كل واحدة من غير مسيس حتى يَبلغ إلى التي هو يومُها فيَبيت عِندها، وكان يزورهنَّ كلهنَّ صباحًا للوعظ والتعليم، ومساءً للملاطفة والمؤانَسة، وكنَّ يَجتمعن معه في بيت كلٍّ منهنَّ، وكان إذا أراد السفر ضرب القرعة بينهنَّ، ولما حجَّ كلهنَّ معه، فهل تراه ميَّز عائشة رضي الله عنها أو غيرها على إحداهنَّ بشيء؟ اللهم لا.

وفي الحديث عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رحمه الله[1]، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «كان

(١) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بْن عَبْد العزى بن قصي الْقُرَشِي الأسدي، أبو عبد الله المدني، مدني تابعي ثقة، وكان رجلًا صالحًا لم يدخل في شيء من الفتن، كانَ كثير الحديث فقيهًا عالمًا مأمونًا ثبتًا وكان من أعلم الناس بحديث خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وُلِد في آخر خلافة عُمَر، يقال: في سنة ثلاث وعشرين، وقيل: ولد عروة لست سنين خلت من خلافة عثمان، وكان بينه وبين أخيه عبد الله بن الزبير عشرون سنة، ومات سنة إحدى أو اثنتين وتسعين، وقيل: ثلاث وتسعين، وقيل: أربع وتسعين، ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي، ترجمة رقم (٤٥٣٢) (٧/ ١١٢).

الحبش يلعبون بحرابهم فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو»[١].

وهنا يلبي النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها رغبتها، فيقف ويسترها من الناس، وتتمكن من الرؤية، فصارت تَرى ولا تُرى.

وقد جاء في خبرها، أنه لما طال وقوفها، قال: «**أرضيتِ**»؟ فقالت: لا، أريد زيادة.

وفي هذا التصرف من قِبَلِ رسول الله ﷺ تلبية لحاجة أهله الفطرية في ذلك السن إلى اللعب المباح والترويح، والمشاركة لهن فيما يناسبهن من ذلك، ليدخل السرور عليهن، ويَسُنُ للأزواج من أمته شريعة سمحة في فن التحبب إلى نسائهم.

وفي الحديث الآخر عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر[٢] فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟ فأقبل عليه

---

(١) أخرجه البخاري، باب «حسن المعاشرة مع الأهل»، حديث رقم (٥١٩٠)، (٣/ ١٦٦٩)، ومسلم واللفظ له، باب «الرُّخْصَةِ فِي اللَّعِبِ الَّذِي لَا مَعْصِيَةَ فِيهِ فِي أَيَّامِ الْعِيدِ»، حديث رقم (٨٩٢) (٢/ ٦٠٩).

(٢) عبد الله ابن أَبِي قحافة، أَبُو بَكْر الصديق رضي الله عنه، كان اسمه فِي الجاهلية عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عَبْد اللهِ، هذا قول أهل النسب؛ الزُّبَيْرِيّ وغيره، واسم أَبِيهِ (أَبِي قحافة):

رسول الله ﷺ فقال: «**دعهما**»، فلما غفل غمزتهما فخرجتا، وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: «**تشتهين تنظرين**»؟ فقلت: نعم فأقامني وراءه خدي على خده، وهو يقول: «**دونكم يا بني أرفدة**»، حتى إذا مللت قال: «**حسبك**»؟ قلت: نعم، قال: «**فاذهبي**»[(١)].

وفي رواية عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كان رسول الله ﷺ جالسًا، فسمعنا لغطًا وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ فإذا حبشية تزفن والصبيان حولها، فقال: «**يا عائشة، تعالي فانظري**»، فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ،

=

عُثْمَان بْن عامر بن عمرو بْن كعب بْن سعد بْن تيم بْن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بْن فهر القرشي التيمي، خليفة رسُول اللهِ ﷺ، وصاحبه فِي الغار، هاجر مع رسُول اللهِ ﷺ، وشهد معه بدرًا وأُحدًا، والمشاهد كلها، أوَّل من أسلم من الرجال فِي قول طائفة من أهل العلم بالسير والخبر، وأول من صَلَّى مع رسول الله ﷺ فيما ذكر أولئك، ومناقبه وفضائله كثيرة جدًّا مدونة فِي كتب العلماء، وَلِي الخلافة بعد وفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ سنتين وشيئًا، وقيل: عشرين شهرًا، توفي يوم الاثنين، وقِيلَ: ليلة الثلاثاء لثمان، وقِيلَ: لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ثَلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المسجد، ودفن في بيت عائشة بجوار صاحبه ﷺ، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ترجمة رقم (١٦٣٣) (٣/ ٩٦٣).

(١) أخرجه البخاري، باب «الحراب والدروق يوم العيد»، حديث رقم (٩٤٩-٩٥٠)، (١/ ٢٨٥)، ومسلم، باب «الرُّخْصَةِ فِي اللَّعِبِ الَّذِي لَا مَعْصِيَةَ فِيهِ فِي أَيَّامِ الْعِيدِ»، حديث رقم (٨٩٢)، (٢/ ٦٠٧).

فجعلت أنظر إليها فقال لي: «**أما شبعت، أما شبعت**»؟ قالت: فجعلت أقول: لا، لأنظر منزلتي عنده، إذ طلع عمر ﷺ فارفضَّ الناس عنها، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لأنظر إلىٰ شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر**»، قالت: فرجعت[1].

«**فسمعنا لغطًا**»: بفتح اللام، والغين المعجمتان صوتًا شديدًا وضجَّة لا يفهم معناها.

«**فإذا حبشية**» بفتحتين أي: جارية، أو امرأة منسوبة إلى الحبش.

«**تزفن**» بسكون الزاي وكسر الفاء ويضم أي : ترقص وتلعب.

«**والصبيان حولها**» أي: ينظرون إليها ويشاهدونها.

«**تعالي فانظري**» بفتح اللام وسكون التحتية، أي: هلمي وتقدمي.

«**فوضعت لحيي**» بالإضافة إلى ياء المتكلم تثنية لحي بالفتح وسكون الحاء المهملة منبت اللحية من الإنسان.

«**علىٰ منكب رسول الله ﷺ**» وهو مجتمع رأس الكتف، والعضد.

«**أنظر إليها**» أي : الحبشية.

«**فجعلت أقول: لا لأنظر منزلتي عنده**» أي: لا لعدم الشبع حرصًا على النظر

---

(١) أخرجه الترمذي، باب «في مناقب عمر ﷺ»، حديث رقم (٣٦٩١)، (٥/ ٦٢١)، والنسائي في «السنن الكبرى»، باب «إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللعب»، حديث رقم (٨٩٥٧)، (٥/ ٣٠٩)، قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، انظر: «صحيح الترمذي» (٢٩١٤)، و«صحيح المشكاة» (٦٠٣٩) قلت : والحديث صحيح.

إليها، بل كان قصدي من هذا القول لأنظر منزلتي وغاية مرتبتي ومحبتي عنده ﷺ.

«**إذ طلع عمر**» أي: ظهر.

«**فارفض الناس عنها**» بتشديد الضاد المعجمة من الارفضاض، أي: تفرقوا عنها من هيبة عمر.

«**إني لأنظر إلىٰ شياطين الجن، والإنس قد فروا من عمر**» كأنه قال ذلك باعتبار كونه في صورة اللهو واللعب، ولا بد أن يكون فيه شيء ولكنه ليس بحرام، وإلا كيف رآه النبي ﷺ وأراه عائشة رضي الله عنها [١].

فالنبي ﷺ لم ينه هاتين الجاريتين لأمرين هما:

أولًا: أن المغنّيتين كانتا جاريتين، والجارية هي البنت الصغيرة -الطفلة- التي لم تبلغ، فهما غير مكلفتين.

ثانيًا: أن ذلك كان في يوم عيد، فيرخص فيه ما لا يرخص في غيره؛ لذا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا.

قال ابن تيمية: ففي هذا الحديث بيان أن هذا لم يكن من عادة النبي ﷺ وأصحابه الاجتماع عليه، ولهذا سماه الصديق رضي الله عنه مزمار الشيطان، والنبي ﷺ أقر الجواري عليه معللًا بأنه يوم عيد، والصغار يرخص لهم في اللعب في

(١) «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري، (٩/ ١٠٢).

الأعياد[١].

ومن فوائد هذه القصة:

١ - مشروعية اللهو المباح كما حدده الشرع، وأن في الإسلام فسحة بما لا يخل بثوابت الدين.

٢ - فيه منقبة ظاهرة لعمر بن الخطاب ﷺ.

وعنها ﷺ قَالَتْ: «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن (تقمَّعن) منه فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فيلعبن معي»[٢].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قوله «يتقمعن» بمثناة وتشديد الميم المفتوحة، وفي رواية الكُشميهني بنون ساكنة وكسر الميم، ومعناه: أنهن يتغيبن منه، ويدخلن من وراء الستر، وأصله من قمع التمرة أي: يدخلن في الستر كما يدخلن التمرة في قمعها.

وقوله: «**فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ**» بسين مهملة ثم موحدة أي: يرسلهن[٣].

ففي جميع الأحاديث السابقة تظهر المعاني السامية في تعامله ﷺ مع

---

(١) «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١١/ ٥٦٦).

(٢) أخرجه البخاري، باب «الانبساط إلى الناس»، حديث رقم (٦١٣٠)، (٤/ ١٩٣١)، ومسلم، باب «في فضل عائشة ﷺ»، حديث رقم (٢٤٤٠)، (٤/ ١٨٩٠).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر، (١٠/ ٥٢٧).

الجارية الصغيرة ومراعاة حالتها النفسية، وهذا ما فَهِمَتْهُ رضي الله عنها بقولها: «فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو»، فهذه المرحلة من العمر، لها خصوصيتها ولا يُحسن التعامل معها إلا أفراد الناس.

القسم الثالث: مراعاته ﷺ للغيرى

تعرّف الغيرة بأنّها مجموعة من الأحاسيس والانفعالات والمشاعر التي ربّما تتطوّر في مراحل لاحقة إلى ردّات فعل، وتحرّك هذه المشاعر والأحاسيس مواقف معيّنة أو ظروف معيّنة، والغيرة غريزة أوجدها الله ﷻ في المرأة كغريزة الأمومة، فنادرًا ما تجد امرأة لا تغار، والغيرة أنواع منها السيئ المدمر، ومنها المحبب للنفس فيجب أن تكون هناك حدود للغيرة، والغيرة غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلًا عمن دونهن، وأصل غيرة المرأة من تخيل محبة غيرها أكثر منها، وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة.

والغيرة هي أميز ما تتميز به المرأة، فهي من الصفات التي فطرت عليها، ولكنها تتفاوت بين امرأة وأخرى. فالله ﷻ خلق المرأة وكتب الغيرة عليها وركبها في طباعها.

فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبيُّ ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة، فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «**غارت أمكم**»، ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها،

وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت[١].

ومع بساطة هذه القصة إلا أنها لا تخلو من مدلول عظيم على مراعاته ﷺ لشعور الناس، وظروفهم، فقد أدرك ﷺ وقتها حالتها الخاصة، ومراعاةً لما جرت عليه عادة الضرائر النفسية، بحيث لا يُقدَر على دفعها وما ثار فيها من غيرة النساء التي تُفقدهن عقولهن، وحسن التصرف، فما زاد أن قال ﷺ: «غارت أمكم» فجعل الصحفة المكسورة من نصيب عائشة رضي الله عنها.

قَالَ ابن الْعَرَبِيِّ رحمه الله[٢]: وكأنه إنما لم يؤدّب الكاسرة، ولو بالكلام لما وقع منها من التعدّي؛ لما فهم من أن التي أهدت أرادت بذلك أذى التي هو في بيتها، والمظاهرة عليها، فاقتصر على تغريمها للقصعة.

قال: وإنما لم يُغرّمها الطعام؛ لأنه كان مُهْدًى، فإتلافهم له قبولٌ، أو في حكم القبول[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، باب « بَابُ الْغَيْرَةِ»، حديث رقم (٥٢٢٥)، (٣/ ١٦٨٠).

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد، الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الحافظ، أحد الأعلام، ولد في شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة، ورحل مع أبيه إلى المشرق، ودخل الشام، فتفقه بأبي بكر الطرطوشي، ولقي بها جماعة من العلماء والمحدثين، صنَّف التفسير، وأحكام القرآن، وشرح الموطأ، وشرح الترمذي، وغير ذلك، وولي القضاء ببلده، مات في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ينظر: «طبقات المفسرين» للسيوطي (١/١٠٥).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر، (٥/١٢٦).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وغفل رَحِمَهُ اللَّهُ عما ورد في الطريق الأخرى.

قلت: وجاء في الطريق الأخرى عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أهدت بعض أزواج النبي ﷺ إلى النبي ﷺ طعامًا في قصعة، فضربت عائشة القصعةَ بيدها، فألقت ما فيها، فقال النبي ﷺ: «**طعام بطعام، وإناء بإناء**»(١).

ومن خلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- هذا الحديث وغيره يحكي الواقع الذي يعيشه النبي ﷺ في بيته، وبينَ نسائه، كأيِّ بشر متزوجٍ لعدة نسوة، يحصُل بينهن الشقاق والخلاف.

٢- حسن تعامل النبيِّ ﷺ مع الخطأ.

٣- حسن خُلق النبي ﷺ، ولينُ جانبه.

٤- حُسْنُ معاشرة النبي ﷺ لأهلِه.

٥- أن القدوة في كل شيء هو نبينا محمد ﷺ.

٦- احترام الطعام؛ لأنه نعمة من نِعَم الله؛ لذا اهتمَّ النبي ﷺ بما تناثر منه، وأخذ يجمعه؛ احترامًا لهذه النعمة.

٧- الإنسان حالَ الغضب لا يملك نفسه.

٨- قدرة النبي ﷺ على تهدئة المشاعر الثائرة، واحتواءِ الأزمات الطارئةِ

---

(١) أخرجه الترمذي، باب «ما جاء فيمن يكسر له الشيء ما يحكم له من مال الكاسر»، حديث رقم (١٣٥٩) (٣٣/٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال الشيخ الألباني: «صحيح»، **قلت:** والحديث صحيح.

وعلاجِها، وتفادي الأضرار المحتملة.

٩- ما صنعته عائشة ﵂، كان على مرأى ومسمعٍ من رسول الله ﷺ، وهو يلمحُ ذلك بطمأنينةٍ وهدوء، ويتنفَّس هموم زوجته المحبوبة له، ويَعذرُ الغَيْرى، ويُعرِضُ عن لومها وعتابها، ويُضرِب عن تأديبِها ولو بالكلام، ويهوي بتواضعه الجمِّ إلى فِلَقِ الصَّحفةِ والطعامِ المتناثر فيجمعها من الأرض، وهو يردد ويتودَّدُ بأرق عبارة، وأعذب بيان، وأجمل اعتذارٍ: «غَارَت أُمُّكم».

١٠- غمر النبي ﷺ عائشةَ ﷺ بعطفه وإلطافه، وشمَلَ المرسلة بعدله وإنصافه، فرضي الجميعُ بقوله وفعله.

١١- الحثُّ على عدم مؤاخذة المرأة التي تغار، وإحسان الظن بها، وتحمل ما يصدر منها، خاصَّة مع حَداثة سِنِّها، وكثرة ضرائرِها؛ لأنها في تلك الحالة يكون عقلُها محجوبًا بشدَّة الغضب، والغيرة مركَّبة في النَّفس فلا تملك دفعها.

١٢- قضى النبيُّ ﷺ فيمن أتلف شيئًا بغير إذن مالكه بغرامة مثلِه، وضمان نظيره، فدفع الصَّحفةَ الصحيحة إلى المُهدية، وحبَسَ المكسورةَ في بيت عائشةَ ﵂، واقتصر على تغريم القصعة، ولم يُغرِّمْها الطعام؛ لأنه كان مهدًى، فإتلافه في حكم القبول، فسوَّى بينهما في الضمان: «**إِنَاءٌ كإِنَاءٍ**»، وهذا عَيْنُ العدل، ومحضُ القياس، وتأويل القرآن، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦].

١٣- على المسلم أن يَصبرَ على ما يبدو من زوجته، ولا يستعجل في الحكم، ويَتريَّث في العقوبة؛ حتى يتثبت من الأمر وبواعثه، فما أجمل الصفحَ والعفو من الزوج لزوجته!، فهو أجمعُ للقلب، وأدومُ للمحبة.

١٤- قيام النبي ﷺ بجمع ما تناثر من الطعام بنفسه فيه تهدئة، وطمأنة لعائشة رضي الله عنها.

المبحث السابع: مراعاته ﷺ لمن في قلبه إيمان، ومن خوى منه

ومن أجمل ما يُسطر هنا مفارقة خطاب رسول الله ﷺ بين مَنْ في قلبه إيمان، وبين مَنْ خوى قلبه من الإيمان، وكان ذلك ظاهرًا بين إيمان عُمر ﷺ وبين مادِّية سراقة ﷺ.

فَعَنْ سُرَاقَةَ ابْنِ جُعْشُمٍ ﷺ [1] قالَ: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفًا أسودة بالساحل أراها محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيينا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليَّ، وأخذتُ رمحي، فخرجتُ به من ظهر البيت، فحططت بزجه الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي

(١) سراقة بن مَالِك بن جعشم بن مَالِك بن عَمْرو بن مَالِك بن تيم بن مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة المدلجي ﷺ، يكنى أبا سُفْيَان، من مشاهير الصحابة، كان ينزل قديدًا، وقيل: إنه سكن مكة، مات سنة أربع وعشرين في صدر خلافة عثمان ﷺ، وقيل بعدها، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٥٨٢/٢).

إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضوا عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال: «**أخف عنا**»، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ[(١)].

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ : أَنَّهُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ[(٢)] مِنْ أَدَمٍ، حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ

(١) أخرجه البخاري، باب «هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة»، حديث رقم (٣٩٠٦)، (٣/ ١١٩٤).

(٢) الْوِسَادُ والْوِسَادَةُ: المِخَدَّة، وَالْجَمْعُ: وَسَائِدُ، وَقَدْ وَسَّدْتُهُ الشيءَ فَتَوَسَّدَهُ، إِذَا جَعَلْتَه تحتَ رأسِه، فكَنَى بالوِسادِ عَنِ النَّوم، لِأَنَّهُ مَظِنَّتُه، ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ٨٢).

قَرَظًا[١] مَضْبُورًا[٢]، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أُهُبًا[٣] مُعَلَّقَةً، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ**»؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا، وَلَكَ الْآخِرَةُ**»[٤].

---

(١) الْقَرَظُ: شَجَرٌ يُدْبَغُ بِهِ، وَقِيلَ: هُوَ وَرَقُ السَّلَمِ يُدْبَغُ بِهِ الْأَدَمُ، وَمِنْهُ أَدِيمٌ مَقْرُوظٌ، وَقَدْ قَرَظْتُهُ أَقْرِظُهُ قَرْظًا، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الْقَرَظُ أَجْوَدُ مَا تُدْبَغُ بِهِ الْأُهُبُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ وَهِيَ تُدْبَغُ بِوَرَقِهِ وَثَمَرِهِ، وَقَالَ مَرَّةً: الْقَرَظُ شَجَرٌ عِظَامٌ لَهَا سُوقٌ غِلَاظٌ أَمْثَالُ شَجَرِ الْجَوْزِ وَوَرَقُهُ أَصْغَرُ مِنْ وَرَقِ التُّفَّاحِ، وَلَهُ حَبٌّ يُوضَعُ فِي الْمَوَازِينِ، وَهُوَ يَنْبُتُ فِي الْقِيعَانِ، وَاحِدَتُهُ قَرَظَةٌ، وَبِهَا سُمِّيَ الرَّجُلُ قَرَظَةَ وَقُرَيْظَةَ، وَإِبِلٌ قَرَظِيَّةٌ: تَأْكُلُ الْقَرَظَ، وَأَدِيمٌ قَرَظِيٌّ : مَدْبُوغٌ بِالْقَرْظِ، وَكَبْشٌ قَرَظِيٌّ وَقُرَظِيٌّ: مَنْسُوبٌ إِلَى بِلَادِ الْقَرَظِ، وَهِيَ الْيَمَنُ؛ لِأَنَّهَا مَنَابِتُ الْقَرْظِ، وَقَرَظَ السِّقَاءَ يَقْرِظُهُ قَرْظًا: دَبَغَهُ بِالْقَرَظِ أَوْ صَبَغَهُ بِهِ، ينظر: «لسان العرب» لابن منظور (٧/ ٥٤) .

(٢) قال النووي رحمه الله : وَقَعَ فِي بَعْضِ الْأُصُولِ مَضْبُورًا بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ وَفِي بَعْضِهَا بِالْمُهْمَلَةِ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ أَيْ مَجْمُوعًا، ينظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٠/ ٨٧).

(٣) بفتح الهمزة والهاء وبضمهما لغتان مشهورتان جمع إهاب وهو الجلد قبل الدباغ على قول الأكثرين وقيل: الجلد مطلقًا، جَمْعُ إِهَاب وَهُوَ الْجِلْدُ، وَقِيلَ: إِنَّمَا يُقَالُ لِلْجِلْدِ إِهَابٌ قَبْلَ الدَّبْغِ فأَما بَعْدُهُ فَلَا، والعَطِنَة: المُنْتِنَة الَّتِي هِيَ فِي دِبَاغِهَا، ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٨٣).

(٤) أخرجه البخاري، باب «تبتغي مرضات أزواجك»، حديث رقم (٤٩١٣)، (٣/ ١٥٦٧)، ومسلم، باب «فِي الْإِيلَاءِ، وَاعْتِزَالِ النِّسَاءِ، وَتَخْيِيرِهِنَّ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾»، حديث رقم (١٤٧٩)، (٢/ ١١٠٨).

ولو تأملنا الجوابين نجد أن جوابه لسُراقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يختلف اختلافًا كبيرًا عن جوابه لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالأول كان وعدًا بالدنيا وهو «سواري كسرى ومنطقته وتاجه»، وقد تحقَّق ذلك في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ذُكر في بعض الروايات، والآخر وعدًا بالآخرة.

فلماذا اختلف الخطابان؟ ولماذا لم يقل لسُراقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ستسلم وستكون لك الجنة؟ ولماذا لم يقل لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ستكون أميرًا عظيمًا، وسلطانًا مهيبًا، وستملك ما تحت قدم قيصر وكسرى؟ وذلك لأمورٍ هي:

١- لأن النبي ﷺ كان في دعوته وإجاباته مستحضرًا الحالة النفسية للمخاطب.

٢- أنَّ سُراقة لم يخرج لاحقًا برسول الله ﷺ إلا من أجل المال، ونفسيته نفسية غير إيمانية، فهو لا يقيم وقتئذ للإيمان والجنة وزنًا، فلا يناسب أن يقال له: ستكون مؤمنًا، وستدخل الجنة، لأن نفسيته -يومئذ- كانت نفسية دنيوية، وقصده قصدًا ماديًا فناسب أن يعده الرسول ﷺ بالمادة التي هي مقصده الأول وقتئذ، والتي خرج من أجلها، وكان معلومًا عند سُراقة أمانة رسول الله ﷺ وصدقه، وأنه إذا وعد وفَّى.

٣- وعد النبي ﷺ سراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسواري كسرى، وقد تحقق ذلك في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في بعض الروايات.

٤- وأما عمر ﷺ فنفسيته نفسية إيمانية، لا تُقيم للدنيا وزنًا، أمام رضا الله ﷻ وجنته فراعى ﷺ في خطابه نفسية عمر ﷺ بما يناسبها، فقال له: «**أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا، وَلَكَ الْآخِرَةُ**»؟

٥- في موقف عمر ﷺ درسٌ من الرعيل الأول يقدّمه لنا النبي ﷺ في علوّ الهمّة، وقوّة العزيمة، وسموّ المطلب، والاستخفاف بملاهي الحياة، والزهد بما فيها، وتوظيف الإنسان فيما يقابله من الشدائد والمكاره في تهذيب النفوس والأخلاق.

المبحث الثامن: مراعاته ﷺ لأصحاب الحالات الخاصة

المطلب الأول: مراعاته ﷺ لحاد الطبع

نبينا محمد ﷺ كان بَشَرًا صاغته يد العناية الإلهية صياغة خاصة، لم يكن بشرًا عاديًا، لكنه بشر اصطنعه الله لنفسه، وصنعه على عينه، ربَّاه فأكمل تربيته، وأدبه فأحسن تأديبه، وأودع فيه من حميد الخصال والخلال، ما يجعله مميزًا عن سائر الخلق، فكان ﷺ من أحسن الناس خُلقًا، فوصفه الله ﷻ بأعلى الأوصاف، وأكمل الصفات، فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

فقد كانت حياته ﷺ ترجمة عملية لما ورد في القرآن الكريم، فعن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيتُ عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، قالت: «كان خلقه القرآن»، أما تقرأ القرآن قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤][(١)]، فكان ﷺ يمتثل لأوامر القرآن، ونواهيه، ويتحلّى بالأخلاق التي مدحها، كما ابتعد عن كلّ خلق ذميم دعا القرآن لتجنّبه.

ففي الحديث: أن النبي ﷺ أهديت له أقبية من ديباج مزررة بالذهب، فقسمها في ناس من أصحابه، وعزل منها واحدًا لمخرمة بن نوفل، فجاء ومعه ابنه المسور

(١) أخرجه أحمد، باب «مسند عائشة رضي الله عنها»، حديث رقم (٢٤٦٠١) (٤١/ ١٤٨)، والحديث إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بن مخرمة رضي الله عنه[١]، فقام على الباب، فقال: ادعه لي فسمع النبي ﷺ صوته فأخذ قباء فتلقاه به واستقبله بأزراره فقال: «**يا أبا المسور خبأت هذا لك، يا أبا المسور خبأت هذا لك**»، وكان في خلقه شدة[٢].

وفي ثنايا هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- في الحديث دعاء الخليفة والعالم وإخراجه لما يظهر إليه من حاجات الناس، وأن ذلك من الفضل ولين الجانب.

٢- تواضع النبي ﷺ وحسن تلطفه بأصحابه.

٣- معرفته ﷺ لنفسيات أصحابه، ومراعاتها وكان يحسب حسابهم، فمنهم مخرمة رضي الله عنه[٣]، فبمجرد علمه أن النبي ﷺ وصلته بعض الهدايا لم يتردد في

---

(١) المِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ بْنِ نَوْفَلٍ يُكْنَى: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أُمُّهُ أُخْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، يُقَالُ لَهَا: الشِّفَاءُ، وَقِيلَ: رَمْلَةُ، وَقِيلَ: عَاتِكَةُ، وُلِدَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِسَنَتَيْنِ، وَشَهِدَ الْفَتْحَ وَهُوَ ابْنُ سِتِّ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي سِنِينَ، تُوُفِّيَ يَوْمَ جَاءَ نَعْيُ يَزِيدَ بْنِ.....= = مُعَاوِيَةَ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ، وَصَلَّى عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بِالْحَجُونِ، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، ترجمة رقم (٢٤٠٥) (٣/ ١٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، باب «المداراة مع الناس»، حديث رقم (٦١٣٢)، (٤/ ١٩٣١).

(٣) مخرمة بْن نوفل بْن أهيب بْن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري رضي الله عنه، شهد حُنينًا، وَهُوَ أحد المؤلفة قلوبهم، وممن حسن إسلامه منهم، وأحد الذين نصبوا أعلام الحرم لعمر رضي الله عنه، مات بالمدينة زمن مُعَاوِيَة رضي الله عنه سنة أربع وخمسين، وقد بلغ مائة سنة وخمس عشرة سنة، وكف بصره فِي زمن عُثْمَان رضي الله عنه يعد فِي أهل الحجاز، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، ترجمة رقم (٢٣٤٩) (٣/ ١٣٨٠).

الذهاب إليه ليطلب منها، وكان ﷺ مراعيًا ذلك، فاستقبله بواحدة كان قد عزلها له.

٤- تودد الإنسان إلى اخوانه بما يستجلب قلوبهم، واجتماع قلوب المؤمنين من مقاصد الشريعة لأن الشريعة تريد أن يكون المجتمع الإسلامي متآلفًا مجتمِعًا، وأن يكون يدًا واحدة، ولذلك فإن استعمال هذه الأسباب الشرعية عظيم جدًّا لتآلفه ووحدته.

المطلب الثاني: مراعاته ﷺ للأعراب

يأسرني دائمًا وصفُ عائشةَ رضي الله عنها لخُلق رسول الله ﷺ واختصارها لسيرة هذا النبيِّ الكريم ﷺ في جملة واحدة، لا تتجاوز ثلاث كلمات، حين قالت: «كان خلقه القرآن»[1]، وهذه الكلمة ضخمة، لدرجة أنه قد لا تقوى على وصْف هذا الخلق أمةٌ بأكملها، وهل انقضى وطر الأمة من القرآن منذ فجر النبوة إلى اليوم؟!

إن عائشة رضي الله عنها تصف لنا قدوةً عملية، وتضع لها وصفًا كاشفًا يعرفه كلُّ إنسان له أدنى علاقة بكتاب الله عز وجل، وكل من أراد أن يعرف تفاصيل خلق ذلك الرسول ﷺ، فليُقبِل على كتاب الله عز وجل فإنها الترجمة الفعلية لأخلاق النبي ﷺ كأنما يعيش معه، ويمشي بين يديه.

إن هذه الكلمة رسالةٌ لكل إنسان يعيش همَّ الدعوة إلى الله جل جلاله والإصلاح في مجتمعه، ويشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه تُجاه أمَّته، وتدْعوه هذه الرسالة أن يعرض سيرته أولًا على كتاب الله سبحانه وتعالى ثم بعد ذلك يعظ الناس على قدر ما معه من تلك المُثُل والصفات من كتاب الله عز وجل.

وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه

---

(١) مضى تخريجه في المطلب السابق.

برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء[١].

ومع طيات هذا الموقف نستلهم بعض الفوائد والعبر:

١- غِلظة الأعراب، وفظاظتهم.

٢- جمع النبي ﷺ في هذا الموقف بين الحلم والصبر على جفاء الأعرابي وغلظته.

٣- إحسانه ﷺ إلى الأعرابي، بل أضاف إلى الموقف الابتسامة والضحك، ومعلوم ما في الأعراب من غلظة، وهذا لم يكن خافيًا على النبي ﷺ، وهذا الأعرابي يجبذ النبي ﷺ بردائه جبذة ليست عادية، بل شديدة لدرجة أنها أثرت في صفحة عاتقه ﷺ، فهل غضب؟ هل انتصر لنفسه؟ هل عنَّف عليه في الرد؟ كلا، كل ذلك لم يكن، بل قابله ﷺ بالضحك، والإحسان، ومراعاته ﷺ لنفسيته، وصدق الله ﷻ إذ يقول في وصفه لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) أخرجه البخاري، باب «الْبُرُودِ وَالْحِبَرَةِ وَالشَّمْلَةِ»، حديث رقم (٥٨٠٩)، (٤/ ١٨٥٥)، ومسلم، باب «إعطاء من سأل بفحش»، حديث رقم (١٠٥٧)، (٢/ ٧٣٠).

٤- إنَّها أفعال مثيرة مفاجئة جافَّة، تُشعل نيران الغضَب في النفس وتُثير ردَّة فعل غاضبة؛ لكنَّ النَّبيَّ ﷺ تعامل مع الموقف بقانون العظمة الأخلاقيَّة قال الله ﷻ واصفًا نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

٥- إنَّ هذا الدرس النبوي العظيم يطفئ نيران الغضَب في قلوبنا، ويسكب السكينة في نفوسنا، ويجعل زمام انفعالاتنا بأيدينا بدل أن تكون أفعالُنا بيد انفعالاتِنا.

٦- يُفيد أنه ينبغي لطلبة العلم والدُّعاة إلى الله ﷻ التأسِّي بالأنبياء في الحلم عند الدَّعوة، والصبر، وعدم الغلظة.

٧- إشارة إلى أنَّ مَن وُلِّيَ على قوم يُستحبُّ له الإقتداء بالرسول ﷺ في تحمل أذى القوم وجفوتهم.

٨- لطف رسول الله ﷺ وحلمه وكرمه.

المطلب الثالث: مراعاته ﷺ لمن يتقى فحشه

نحن أمام موقف من مواقف العظمة لسيد الخلق وخيرهم نبينا محمد ﷺ، وكل مواقفه تنطق بالعظمة والسمو والرقي، وما أحوج الناس عمومًا اليوم، والمسلمين على وجه الخصوص، والدعاة إلى الله ﷻ على الأخص أن يتعلموا من مواقفه، وينهلوا من مكارم أخلاقه ﷺ ومعاليها، وسمو قيمه ومراقيها، في وقت عزَّت فيه الأخلاق، واختلطت فيه القيم!!

ها هو مُعلِّم الناس الخير، ها هو البشير النذير، والسراج المنير، ها هو رسول ﷺ في جلسة عائلية مع زوجه أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، جلسة يسودها الدفء والمودة، ويخيِّمُ عليها الصفاء والنقاء، وبينما هما على هذا الحال استأذن رجل في الدخول على رسول الله ﷺ، فلما علم الرسول شخصيةَ ذلك الرجل وعرف من هو؟ قال كلمة قبل أن يأذن له فيدخل سمعتها منه عائشة رضي الله عنها، قال عن الرجل: «بئس ابن العشيرة»، أو «أخو العشيرة»، قال الطيبي رحمه الله: العشيرة (أي) القبيلة، أي: بئس هذا الرجل من هذه العشيرة، كما يقال: «يا أخا العرب» لرجل منهم.

وقد جاء في الحديث عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها : أن رجلًا استأذن على النبيِّ ﷺ فلما رآه قال: «**بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة**» فلما جلس تطلق النبيُّ ﷺ في وجهه

وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل، قالت عائشة ﵂: يا رسول الله حين رأيتَ الرجل قلتَ له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة متىٰ عهدتني فحاشا إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره**»(١).

وكيف جاز له أن يظهر له خلاف ما يبطن ويقول في ظهره ما قال؟

الجواب: أن فعله ﷺ كان استئلافًا لمثله، وتطييبًا لنفسه؛ ليتمكن إيمانه ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام، ومثل هذا على هذا الوجه قد خرج من حد مداراة الدنيا إلى السياسة الدينية، وقد يستألفهم بأموال الله ﷻ العريضة فكيف بالكلمة اللينة(٢)؟

والرجل المذكور في الحديث لم يعيَّن من هو؟ قال ابن بطال ﵀: هو عُيينة بن حِصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، وكان يقال له «الأحمق المطاع» ورجا النبيُّ ﷺ بإقباله عليه تألفه ليسلم قومه؛ لأنه كان رئيسهم، وكذا فسَّره به عياض، ثم القرطبي، والنووي -رحمهم الله تعالى- جازمين بذلك(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، باب «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا»، حديث رقم (٦٠٣٢)، (٤/ ١٩٠٦)، ومسلم، باب «مُدَارَاةِ مَنْ يُتَّقَى فُحْشُهُ»، حديث رقم (٢٥٩١)، (٤/ ٢٠٠٢).

(٢) ينظر: «الشفا بحقوق المصطفى» للقاضي عياض، (٢/ ٢٠١).

(٣) «شرح البخاري» لابن بطال، (٩/ ٢٣٠)، و«فتح الباري» لابن حجر، (١٠/ ٤٥٣).

قال القاضي عياض رحمه الله: واسم هذا الرجل هو عيينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام، فأراد النبيُّ ﷺ أن يبين حاله؛ ليعرفه الناس، ولا يغتر به مَن لم يعرف حاله، وكان منه في حياة النبي ﷺ وبعده ما دلَّ على ضعف إيمانه، وارتد مع المرتدين، وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنه، ووصف النبيُّ ﷺ له بأنه بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة من أعلام النبوة؛ لأنه ظهر كما وصفه النبي ﷺ، وإنما ألان له القول تألفًا له ولأمثاله على الإسلام(١).

قال الخطابي رحمه الله: جمع هذا الحديث الشريف علمًا وأدبًا، وليس قوله ﷺ في أمته بالأمور التي يسهم بها ويضيفها إليهم من المكروه غيبة، وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض، بل الواجب عليه ﷺ أن يبين ذلك، ويفصح به ويعرف الناس أمورهم، فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة، ولكنه لما جبل عليه من الكرم، وأعطيه من حسن الخلق أظهر له البشاشة ولم يجبه بالمكروه، ولتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله، وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته(٢).

وقال القرطبي رحمه الله: فيه جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة(٣).

---

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للنووي، (١٦/ ١٤٤).
(٢) «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري، (٥/ ٢٤٢).
(٣) المصدر السابق.

ومن خلال الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- مراعاته ﷺ للحالة النفسية لهذا الرجل وبشَّ في وجهه، وهش.

٢- أنه ﷺ لم يذكر له ما فيه من الصفات السيئة، مع بيان حاله لغيره، تطييبًا لنفسه.

٣- هذا الحديث الشريف يرسخ قاعدة إسلامية أصيلة من قواعد المعاملات الإنسانية، وأساس متين من أسس العلاقات الاجتماعية في التصور الإسلامي، ما أحوجنا إليه اليوم، تلك القاعدة تقول: أن الفحش في القول وبذاءة اللسان من الأمور الهدامة في مجال العلاقات والمعاملات الإنسانية، وأن عفة اللسان، واللين في القول من الأسس الهامة لتدعيم تلك العلاقات والمعاملات.

٤- أن المداراة تزرع الألفة والمودة، وتجمع بين القلوب المتنافرة، وتطفئ العداوة بين الناس.

٥- ليس وصفه بهذا القول من الغيبة وإنما وُصِفَ ليُعلم حاله فيُتَّقى ويحذر منه.

٦- المداراة في تعامل الإمام مع الرعية فليس كل الرعية على نمط واحد، من حسن الخلق والمعشر، إنَّما الناس يختلفون، فيحتاج الإمام للمداراة، وهذا يكون من الإمام جمعًا للأمة، ورأفةً بها، وإرشادًا للضال، وتعليمًا للجاهل، لاسيما إن كان هؤلاء من أهل الرياسات والأتباع، فيداريه الإمام مراعاة

لمصلحة الأمة كلها.

٧- المداراة من عوامل إنجاح الدعوة إلى الله ﷻ، إما بهداية من يداريه الداعية، أو بكفاية شره، وفتح مجالات أوسع للدعوة.

٨- **قال ابن القيم** رحمه الله: «المدَاراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المدَاراة تلطُّف الإنسان بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، وأما المداهن، فهو الذي يتلطَّف مع صاحبه ليُقرَّه على ذنب أو يتركه على هواه، فالمدَاراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق»(١).

٩- **وثَمَّتَ فرقٌ آخر بين المداراة والمداهنة**: أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا، وهي مباحة وربما استحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا.

١٠- وفيه مداراة من يتقى فحشه، وجواز غيبة الفاسق، ودليل على أن ذكر الفاسق بما فيه ليعرف أمره فيتقى لا يكون من الغيبة.

١١- في هذا الحديث بيان خطورة فحش الكلام، وأن من أكثر منه حتى تحاشاه الناس خوفًا من شرِّ لسانه فهو بشرِّ المنازل عند الله ﷻ، ومَنْ الذي يرضى لنفسه أن يكون بتلك المثابة والمنزلة؟ فشرُّ الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه، لا تراه إلا متلبسًا بجريمة، ولا تسمعه إلا ناطقًا بالأقوال الأثيمة، فعينه

(١) «الروح» لابن القيم (ص ٢٣١).

غمَّازة، ولسانه لمَّاز، ونفسه همَّازة، مجالسته شر، وصحبته ضر، وفعله العدوان، وحديثه البذاءة، لا يذكر عظيمًا إلا شتمه، ولا يرى كريمًا إلا سبه وتعرض له بالسوء، ونال منه، وسفه عليه.

المطلب الرابع: مراعاته ﷺ لمن حلت به مصيبة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: مرَّ النبيُّ ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «**اتقي الله واصبري**»، قالت: إليك عنِّي فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**»(١).

ومن طيات هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- تواضعه ﷺ، ورحمته بأمته.

٢- مراعاة النبي ﷺ لحالة تلك المرأة النفسية حيث إن كلمتها «إِلَيْكَ عَنِّي» كلمة كبيرة على أحدنا، فكيف إذا قيلت لرسول الله ﷺ؟! ولكن النبي ﷺ سيد الحكماء أدرك ما كانت المرأة عليه من حالة خاصة، فضلًا عن أنها لم تعرفه فأعرض عنها.

٣- أن الوقت ليس وقت تعليم، لذالك أعرض النبي ﷺ عن تعليمها، لأنها في حال لا يُمكِّنها من القبول والفهم.

٤- مجيء المرأة إلى الرسول ﷺ مرة أخرى بنفسيةٍ مختلفة عن نفسيتها الأولى قام الرسول ﷺ مقبلًا عليها يعظها ويعلمها ولم يعاتبها، مراعاةً لحالتها

(١) أخرجه البخاري، باب «زيارة القبور»، حديث رقم (١٢٨٣)، (١/ ٣٨٢)، ومسلم، باب «في الصبرعلى المصيبة»، حديث رقم (٩٢٦)، (٢/ ٦٣٧).

النفسية حينما مر بها.

٥- يحتوي الحديث على مضامين تربوية في غاية الأهمية؛ لكونه يمسُّ قضية من أهمِّ القضايا التي يدور الإنسان في نطاقها، تِلْكُمْ هي قضية الابتلاء.

المطلب الخامس: مراعاته ﷺ لمن يحب المدح

كان النبي ﷺ قدوة للناس، وأسوة حسنة في تعامله وأخلاقه، ووصفه الله ﷻ في كتابه بأنه صاحب الخلق العظيم، والسراج المنير الذي جاء بالوحي والرسالة ليخرج الناس من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الهداية والتوحيد، والمتأمل في سيرة النبيِّ محمد ﷺ يدرك كثيرًا من الدروس والعبر في نهج حياته وسيرته العطرة، ومن بين تلك الدروس التي يستفيد منها المسلم ويهتدي بهديها كيفية تعامله مع أعدائه لا سيما من كان مغرمًا بالمدح والفخر.

وإليك موقفًا ونموذجًا لتعامله ﷺ معهم.

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ، قَالَ الْعَبَّاسُ: قُلْتُ: وَاللهِ، لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ عَنْوَةً، قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ فَيَسْتَأْمِنُوهُ إِنَّهُ لَهَلَاكُ قُرَيْشٍ، فَجَلَسْتُ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: لَعَلِّي أَجِدُ ذَا حَاجَةٍ يَأْتِي أَهْلَ مَكَّةَ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجُوا إِلَيْهِ، فَيَسْتَأْمِنُوهُ فَإِنِّي لَأَسِيرُ إِذْ سَمِعْتُ كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ، وَبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَنْظَلَةَ، فَعَرَفَ صَوْتِي، فَقَالَ: أَبُو الْفَضْلِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا لَكَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قُلْتُ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَالنَّاسُ، قَالَ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ: فَرَكِبَ خَلْفِي، وَرَجَعَ صَاحِبُهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَوْتُ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا

الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا، قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ**»، قَالَ: فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ[1].

وفي ثنايا هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- إنزال الناس منازلهم، فأبو سفيان كان سيِّد قريشٍ، وقد جرت عادة الحروب أنه إذا هزم قوم أن يذلَّ أسيادُهم، ولم يفعل ذلك رسول الله ﷺ، فقد أعلن ﷺ يوم الفتح أن: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ».

٢- أنه ﷺ حينما أبطل شرائع الجاهلية لم يبطل منازل الناس.

٣- لو تأملنا قوله ﷺ لوجدت أنه لا فرق بين دار أبي سفيان رضي الله عنه ودار غيره، والمسجد، ولكنها مسألة نفسية لا أقل ولا أكثر، فراعاها النبي ﷺ.

٤- مراعاة النبي ﷺ لعمه، وتطيّبًا لخاطره في إكرام أبي سفيان.

٥- ترغيب الناس في الدخول في الإسلام، وأنه ﷺ لم يأتِ مقاتلًا إلا لمن أبى وعاند، أما من أذعن فقد أعطاه الأمان.

(١) أخرجه مسلم، باب «فتح مكة»، حديث رقم (١٧٨٠) (٣/ ١٤٠٥).

المطلب السادس: مراعاته ﷺ لضعيف العقل

جاء النبي ﷺ إلى البشرية بتطهير النفس من الأخلاق الرديئة، وحثها على الأخلاق الحسنة، ومن أعظم الأخلاق الفاضلة التي أوصى بها النبي ﷺ خلق الرفق، ذلك الخلق الرفيع الذي يضع الأمور في نصابها، ويصحح الأخطاء ويقوِّم السلوك، ويهدي إلى الفضائل بألطف عبارة، وأحسن إشارة وطريقة مؤثرة.

وهاك مثالًا لموقف يتجلىٰ فيه رفقه ﷺ بصاحب هذا الموقف وتعليمه إياه ما يكون عونًا له في تجارته.

فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَّانٍ[1] قَالَ: هُوَ جَدِّي مُنْقِذُ بْنُ عَمْرٍو[2]، وَكَانَ

---

(١) مُحمد بن يَحيى بن حَبَّان بن منقذ بْن عَمْرو بن مالك بن خنساء بن مبذول بن عَمْرو ابن غنم بن مازن بن النجار الأَنْصارِيّ النجاري المازني، أَبُو عَبد اللهِ المدني، كانت له حلقة في مسجد رَسُول اللهِ ﷺ، وكان يفتي، وكان ثقة، كثير الْحَدِيث، مات بالمدينة سنة إحدى وعشرين ومئة، وهو ابن أربع وسبعين سنة، ينظر: «تهذيب الكمال للمزي»، ترجمة رقم (٦٣١١) (٩/ ٤٠٤).

(٢) منقذ بْن عَمْرو المازني الأَنْصَارِيّ، مدني، له صحبة، هُوَ جد مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن حبان، كَانَ قد أصابته ضربة فِي رأسه فتغيَّر لسانه وعقله، فجعله رَسُول اللهِ ﷺ فِي بيعته بالخيار ثلاث ليال، عاش ثلاثين ومائة سنة، وَكَانَ فِي زمن عُثْمَان حين كثر الناس يبتاع فِي السوق فيغبن فيصير إِلَى أهله فيلومونه فيرده ويقول: إن رَسُول اللهِ ﷺ جعل لي الخيار ثلاثًا، حَتَّى يمر الرجل من أصحاب رَسُول اللهِ ﷺ فيقول: صدق، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، ترجمة رقم (٢٥٠٠) (٤/ ١٤٥١).

رَجُلًا قَدْ أَصَابَتْهُ آمَّةٌ فِي رَأْسِهِ[١]، فَكَسَرَتْ لِسَانَهُ، وَكَانَ لاَ يَدَعُ عَلَى ذَلِكَ التِّجَارَةَ، فَكَانَ لاَ يَزَالُ يُغْبَنُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: «**إِذَا أَنْتَ بَايَعْتَ، فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ، ثُمَّ أَنْتَ فِي كُلِّ سِلْعَةٍ ابْتَعْتَهَا بِالْخِيَارِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، فَإِنْ رَضِيتَ فَأَمْسِكْ ، وَإِنْ سَخِطْتَ فَارْدُدْهَا عَلَى صَاحِبِهَا**»[٢].

وفي رواية عَنْ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يُخْدَعُ فِي الْبُيُوعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ بَايَعْتَ فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ**»، فَكَانَ إِذَا بَايَعَ يَقُولُ: لاَ خِيَابَةَ[٣].

قال النووي رحمه الله: أما قوله ﷺ «فقل: لا خلابة» بخاء معجمة مكسورة وتخفيف اللام وبالباء الموحدة، وقوله: «وكان إذا بايع قال: لا خيابه» هو بياء مثناة تحت بدل اللام هكذا هو في جميع النُّسخ.

قال القاضي: ورواه بعضهم «لا خيانة» بالنون قال: وهو تصحيف، قال: ووقع

---

(١) هي الشجة التي تبلغ أم الرأس والمأمومة مثلها، يقال: أممت الرجل بالعصا إذا ضربت أم رأسه، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ كقولك: رأسته وصدرته وظهرته = = إذا ضربت منه هذه المواضع فالآم الضارب المأمومة أم الرأس، وإنما قيل للشجة آمة ومأمومة بمعنى ذات أم كقولهم راضية وسيل مفعم، ينظر: «الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (١/ ٥٧).

(٢) أخرجه البخاري، باب «ما يكره من الخداع في البيع»، حديث رقم (٢١١٧)، (٢/ ٦٣٠)، ومسلم، باب «من يخدع في البيع»، حديث رقم (١٥٣٣)، (٣/ ١١٦٥).

(٣) أخرجه مسلم، باب «من يخدع في البيع»، حديث رقم (١٥٣٣)، (٣/ ١١٦٥).

في بعض الروايات في غير مسلم «خذابة» بالذال المعجمة، والصواب الأول، وكان الرجل ألثغ فكان يقولها هكذا، ولا يمكنه أن يقول «لا خلابة» ومعنى «لا خلابة»: لا خديعة، أي: لا تحل لك خديعتي أو لا يلزمني خديعتك[١].

من خلال هذه الألفاظ في الحديثين تكتمل صورة هذا الصحابي ﷺ، وأنه كان سليمًا صحيحًا تاجرًا، وتربى على التجارة، وتعلقت نفسه بها، فأصابه هذا البلاء الذي حبس لسانه، ومع أنه يُغبن، وأهله طلبوا من النبي ﷺ أن يحجر عليه، إلا أن نفسه متعلقة بالتجارة ولا يستطيع أن يصبر عنها، فما كان منه ﷺ بعد أن رأى شدة تعلُّقه بالتجارة، إلا أن راعى الحالة النفسية، وأرشده لأمر يضمن حقوقه، وهو قوله: «لاَ خِلاَبَةَ»[٢].

ولذلك بوب البخاري ﷺ في صحيحه بَاب «مَنْ رَدَّ أَمْرَ السَّفِيهِ وَالضَّعِيفِ الْعَقْلِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَجَرَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ».

ثُمَ قَالَ: وَمَنْ بَاعَ عَلَى الضَّعِيفِ وَنَحْوِهِ فَدَفَعَ ثَمَنَهُ إِلَيْهِ وَأَمَرَهُ بِالْإِصْلَاحِ وَالْقِيَامِ بِشَأْنِهِ فَإِنْ أَفْسَدَ بَعْدُ مَنَعَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَقَالَ لِلَّذِي يُخْدَعُ فِي الْبَيْعِ: «إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ لَا خِلَابَةَ»، وَلَمْ يَأْخُذْ النَّبِيُّ ﷺ مَالَهُ[٣].

---

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، (١٠/ ١٥١).

(٢) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، (١٠/ ١٥١).

(٣) أخرجه البخاري، بَاب «مَنْ رَدَّ أَمْرَ السَّفِيهِ وَالضَّعِيفِ الْعَقْلِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَجَرَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ»، حديث رقم (٢٤١٤)، (٢/ ٧٢٠).

ومن خلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- مراعاة النبي ﷺ لحال هذا الصحابي ﷺ وتعلقه بالتجارة، فلم يحجر عليه.

٢- حرص النبي ﷺ على هذا الصحابي ﷺ فأرشده لقول: «لَا خِلَابَةَ» عند البيع حتى لا يغبن ويضيع ماله، ويخسر تجارته.

٣- تنفيذ الصحابة ﷺ ومن بعدهم من المؤمنين لأمر الله ﷻ، وأمر رسوله ﷺ في تصديق هذا البائع ورد البيعة في حالة غبنه.

المطلب السابع: مراعاته ﷺ لمن غلبت عليه شهوته

الأخلاق الإسلامية عبارة عن المبادئ والقواعد المنظِّمة للسلوك الإنساني، والتي يحدِّدها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحوٍ يحقِّق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتمِّ.

ويتميَّز هذا النظام الإسلامي في الأخلاق بميزتين:

الأوَّل: أنه ذو طابع إلهي، بمعنى أنه مراد الله ﷻ.

الثاني: أنه ذو طابع إنساني؛ أي: للإنسان مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية، وهذا النظام هو نظام العمل من أجل الحياة الخيِّرة، وهو طراز السلوك وطريقة التعامل مع الله ﷻ والنفس والمجتمع.

وهو نظام يتكامَل فيه الجانب النظري مع الجانب العملي منه، وهو ليس جزءًا من النظام الإسلامي العام، بل هو جوهر الإسلام ولبُّه وروحه السارية في جميع نواحيه؛ إذ النظام الإسلامي -على وجه العموم- مبنيٌّ على مبادئه الخُلُقية في الأساس، بل إن الأخلاق هي جوهر الرسالات السماوية على الإطلاق.

فليس أمامنا إلا أن نتأمل في موقف صاحب أعلىٰ مقام ﷺ كيف تعامل مع هذا الشاب؟

فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ[١] ﷺ قَالَ: إن فتى شابًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «**ادنه**»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: «**أتحبه لأمك**»؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، قال: «**أفتحبه لابنتك**»؟ قال: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**»، قال: «**أفتحبه لأختك**»؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**»، قال: «**أفتحبه لعمتك**»؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**»، قال: «**أفتحبه لخالتك**»؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**»، قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتىٰ يلتفت إلىٰ شيء**»[٢].

---

(١) صدي بْن عجلان بْن الحارث، وقيل: عجلان بْن وهب، أَبُو أمامة الباهلي السهمي، وسهم بطن من باهلة، وهو سهم بْن عمرو بْن ثعلبة بْن غنم بْن قتيبة بْن معن، غلبت عليه كنيته، صاحب رسول الله ﷺ، نزيل حمص، توفي سنة إحدى وثمانين، وهو ابن إحدى وتسعين سنة، ويقَالَ: مات سنة ست وثمانين، وهو آخر من مات بالشام من أصحاب النبي ﷺ، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، ترجمة رقم (١٢٣٧) (٢/ ٧٣٦).

(٢) أخرجه أحمد، حديث رقم (٢٢٢١١)، (٥/ ٢٥٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح»، والطبراني في «الكبير»، حديث رقم (٧٦٧٩) (٨/ ١٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، حديث رقم (٥٠٣٢)، (٧/ ٢٩٥)، وقال الألباني: «صحيح»، انظر: «السلسلة الصحيحة»(٣٧٠)، والحديث إسناده صحيح.

قلت: وهذا موقف آخر من عشرات -إن لم يكن من مئات- المواقف، نتعلمه من المدرسة النبوية، فهذا شابٌّ يطلب الرخصة في الزنا، وركوب الفواحش بأسلوب صريح منفِّر، وَمِنْ مَنْ؟

من أعلى مقام في المدينة، فالمستأذَن هو النبي ﷺ وليس أي إنسان، والمُستأذَنُ فيه كبيرة من الكبائر، وهو الزنا، ولم تكن هناك سرِّية في الاستئذان، أو تلميح في الطلب، بل كان بمسمع وبحضورٍ من الصحابة ﷺ، وبصراحة لا تحتمل التأويل، فهذا أمر عجب، يستأذن أطهرَ البشر في صنع أرذل الخطايا، أمَا يستحي؟! أمَا يرعوي؟! لقد نالَه من الصحابة ﷺ ما يتوقَّع لمثله من التقريع والتأنيب، يقول أبو أُمَامَة ﷺ : فأقبَل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، وأمَّا النبي ﷺ فقد أدرك أن مشكلة الشاب وانحرافه لن تُقَوَّم بالزجر والوعيد والتقريع، فقال له: «ادنه»، فدنا منه الشابُّ قريبًا، فقال له: «أتحبُّه لأمِّك؟»، فانتفض الشاب غَيْرَةً على أمِّه وقال: لا والله، جعلني الله فداءك، فقال له: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، ومضى النبيُّ ﷺ يستثير كوامن الغَيْرَةِ الممدوحة في صدر الشاب: «أفتحبُّه لابنتك؟»، فأجاب الشاب: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، فأجابه النبي ﷺ بمنطقية المربي: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، ثم جعل رسول الله ﷺ يستلُّ بحكمته ومنطقه دخَن قلبه، ويُطفِئ نار شهوته بتعداد محارمه: «أتحبُّه لأختك... أتحبُّه لعمتك... أتحبُّه لخالتك؟»، هل تحب أن تراهُنَّ وقد تعرَّضن لمثل ما تريده من محارم الآخرين؟!

فالناس يكرهون هذه الفعلة في محارمهم، كما كرهها هو في أهله.

فلمَّا استبشع الشاب فِعلة الزنا طلب ﷺ له سببًا آخر من أسباب الهداية يغفل عنه الآباء والمربُّون، ألا وهو دعاء الله ﷻ الذي يملك أزِمَّة القلوب ومفاتيحها، فقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه»، واستجاب الله له، يقول أبو أمامة رضي الله عنه: فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء.

وفي طيات هذا الموقف نستلهم بعض الفوائد والعبر:

١- لقد راعى النبي ﷺ الحالة النفسية لهذا الشاب المندفع، المتجاوز لكل المعايير المانعة لطلبه، وأدرك ﷺ حالته الخاصة، فلقد كان يتصارع في نفس الشاب شهوة عارمة، وإيمان صادق، ولم ير الشابُّ -وقتئذ- حلًّا لهذا الصراع، وفضًّا لهذا النزاع إلا إذنًا مؤقتًا من النبي ﷺ يتجاوز به حدود الشرع، ثم يرجع إلى الشرع.

٢- لم يتوجه إليه النبي ﷺ بموعظة إيمانية، فضلًا عن أن يعنفه أو يوبخه أو يطرده، لأن الشاب كان ممتلئًا إيمانًا، ولولا ذلك لزنا دون إذن النبي ﷺ وعلمه، وما دفعه إلى الاستئذان إلا الإيمان، فأنطلق النبي ﷺ يُذكِّرُهُ بما في هذا العمل من مفسدة أخلاقية عظيمة، تستبشعها الفطر السليمة، وتستقبحها النفوس العفيفة، إذ أن المسألة ليست مسألة حرام فحسب، بل فيها مفاسد أخرى، فكأنه ﷺ يقول له: إذا استأذنت لك من الله فكيف نحصل على الإذن من آباء المزني بهن، وإخوانهن،

وأعمامهن، وأخوالهن؟ وإذا أذنت لك بالزنا بقريبات هؤلاء، فهل ترضى أن آذن لهم فيزنوا بقريباتك؟

٣- هذه المبادرة النبوية بهذا الأسلوب الرائع أسلوب الاقناع الفكري ولّدت في نفس الشاب القناعة، وعلمته مقاصد الشريعة وحِكَمِها من تحريم هذا الفعل الشنيع، وإلا كان من الممكن أن يقول الرسول الله ﷺ له هذا حرام، ولا يجوز، ويُنكر عليه، ويسرد له من أدلة القرآن الكريم على تحريم الزنا، ولكن تبقى قضية القناعة لا تأخذ حقها في النفس.

٤- بعد ذلك ازدان مع هذا الحوار النبوي الجميل والمقنع أن تلطف النبي ﷺ مع هذا الشاب حيث وضع يده الشريفة ﷺ على صدره، راجيًا تثبيته بدعاء يثلج الصدور، ويطمئن القلوب، ويهدي النفوس: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، فكان بمثابة العلاج الناجع لشهوة الفتى، والدواء الذي أصاب كبد الداء، ليأتينا بعد ذلك وصف حال الشاب كما في الحديث: «فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ».

٥- في هذا الموقف درس للدعاة، والمربين، والحريصين على متابعة سيد الدعاة ﷺ فما عليهم إلا الأخذ بأسلوب المربي الأول ﷺ والاقتداء به في تربيته للأمة، من الاقناع الفكري، والعاطفي، والتلطف بالمربَين، والدعاء لهم بالبركة والخير والمغفرة، ومراعاة أحوالهم النفسية.

٦- قصة بليغة تضمَّنت دروسًا متعدِّدة في التعامل مع المخطئ، أولها الدعاء له والحنوُّ عليه، والسماح له بالتعبير عن كوامنه، واستجاشة الخير الذي لا يخلو منه قلب خاطئ أبدًا، وفيها دعوةٌ لنا لنُراجِع أنفسنا، ونغيِّر من طريقتنا في التعبير عن ضجرنا من أخطاء أبنائنا وأصدقائنا، فالسبُّ والشتم الذي نكيله للمخطئين لن يكون سببًا في إصلاحهم وتهذيب سلوكهم وتعريفهم بأخطائهم.

المبحث التاسع: مراعاته ﷺ للجاهل بأحكام الشرع

الأنموذج الأول: مراعاته ﷺ للجاهل بأحكام المساجد

الجهل المراد به نقيض العلم، فالجهل : عدم معرفة الشيء، يقال: جهلت الشيء إذا لم تعرفه، تقول مثلي لا يجهل مثلك.

ومن هذا الباب قوله ﷻ : ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، يعني: الجاهل بحالهم، ولم يرد الجاهل الذي هو ضد العاقل، إنما أراد الجهل الذي هو ضد الخبرة، يقال هو يجهل ذلك أي لا يعرفه، ومنه قول الله ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

ففي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ**»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ ﷻ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»، قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ

فَشَنَّهُ عَلَيْهِ[١].

وفي الحديث الآخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ الْمَسْجِدَ وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ، فَصَلَّى، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا**»، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَهْرِيقُوا عَلَيْهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[٢].

فلو تأملنا هذه القصة لرأينا أمرًا عجيبًا، فالمسجد لم يكن خاليًا، فالنبي ﷺ موجود، ومعه أصحابه ﷺ، قام هذا الأعرابي في طائفة -جانب من جوانب- المسجد، ووقف ليتبول، فقال الصحابة ﷺ: مه مه؟ يعني ماذا تفعل؟ فيرد عليهم الخبير بنفسيات هذا الصنف من الناس، قائلًا لهم: «لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ»، يعني: لا تقطعوا عليه بوله، دعوه يكمل بوله، وإذا بصاحب الخلق الكريم ينادي عليه بعدما انتهى: تعال، هل شتمه، نهره، ضربه، جرح مشاعره؟ كل ذلك لم يكن!

فهل استهزأ به، سخر منه، تهكم عليه؟ لا والله!

---

(١) أخرجه البخاري، باب «الرفق في الأمر كله»، حديث رقم (٦٠٢٥)، (٤/ ١٩٠٥)، ومسلم، باب «وُجُوبِ غُسْلِ الْبَوْلِ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ إِذَا حَصَلَتْ فِي الْمَسْجِدِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ تَطْهُرُ بِالْمَاءِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى حَفْرِهَا»، حديث رقم (٢٨٥)، (١/ ٢٣٦)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري، باب «رحمة الناس والبهائم»، حديث رقم (٦٠١٠)، (٤/ ١٩٠١).

فانظر ماذا قال له ﷺ قال ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»، وأمر ﷺ الصحابة رضي الله عنهم بقوله: «أَهْرِيقُوا عَلَيْهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ»، ثم قال ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»، لكن هذا الأعرابي تأثر بأخلاق النبي ﷺ، وبهذا الحلم والرفق، فأول ما دخل في الصلاة خلف رسول الله ﷺ قام يدعو الله ﷻ لنفسه وللذي راعى حالته، وراعى جهله، وعامله بمنتهى اللطف، فقال: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا**»، فالتفت إليه النبي ﷺ وقال له: «**لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا**»، وهذه هي النتيجة الحتمية لمن راعى أحوال الناس النفسية، وعرف كيف يتعامل مع نفوسهم، ويكسب قلوبهم؟

وفي ثنايا هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- أن الأعرابي لم يتعمد البول في المسجد لأنه مسجد بل يستوي عنده تراب خيمته وتراب المسجد، لذا عندما وجد نفسه بحاجة للتبول أخذ ناحية من المسجد وبال فيها.

٢- رحمته ﷺ حيث منع الصحابة من إيذائه مع قبح ما صنع.

٣- حرصه ﷺ على عدم تلويث مكان أكبر من المسجد.

٤- ملاطفته ﷺ لهذا الأعرابي، وعدم تعنيفه بأن وضَّح له أن هذا مسجد ولا يصلح لهذه الأفعال.

٥- تقبل الأعرابي لما قاله النبي ﷺ له وإنشراح صدره له، والدعاء له وللنبي ﷺ.

٦- لينه ورفقه ﷺ بالأعرابي، وبأمته يشرح صدر كل من يعرفه ﷺ.

٧- الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء، إذا لم يأتِ بالمخالفة استخفافًا أو عنادًا.

٨- دفع أعظم الضررين باحتمال أخفِّهما لقوله ﷺ: «دعوه».

الأنموذج الثاني: مراعاته ﷺ للجاهل بحكم الكلام في الصلاة

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ[١] ﷺ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي، وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»[٢].

وهذا موقف آخر تظهر فيه مراعاة الحبيب ﷺ لمن جهل حكم الكلام في الصلاة، وهو شبيه بالموقف السابق من جهة الخطأ، وإنكار الصحابة ﷺ، وتوجيه النبي ﷺ بالأسلوب نفسه، والصيغة نفسها، لأن النفسية واحدة، والخبير والموجه والمربي ﷺ واحد.

فهناك قال: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ»، وهنا قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ».

---

(١) معاوية بن الحكم السلمي ﷺ، لَهُ صحبة، وقِيلَ: عُمَر بْن الحكمٍ وهو وَهْمٌ، كان يسكن بني سليم وينزل المدينة، ينظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٤١٤).

(٢) أخرجه مسلم، باب «تحريم الكلام في الصلاة»، حديث رقم (٥٣٧)، (١/ ٣٨١).

هناك قال: «لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ»، وهنا قال: «لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ».

وهناك قال: «إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»، وهنا قال: «إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ».

هناك تأثر بأخلاقه ﷺ فقابله بالدعاء، وهنا تأثر بأخلاقه ﷺ فقابله بالثناء: «فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي».

قال النووي رحمه الله: فِيهِ بَيَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ عَظِيمِ الْخُلُقِ الَّذِي شَهِدَ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ، وَرِفْقِهِ بِالْجَاهِلِ، وَرَأْفَتِهِ بِأُمَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَفِيهِ التَّخَلُّقُ بِخُلُقِهِ ﷺ فِي الرِّفْقِ بِالْجَاهِلِ، وَحُسْنِ تَعْلِيمِهِ، وَاللُّطْفِ بِهِ، وَتَقْرِيبِ الصَّوَابِ إِلَى فَهْمِهِ(١).

وهاك أخي يا رعاك الله بعض الفوائد والعبر:

١- قمة أسلوب توجيه المخطئين عند النبي ﷺ الذي هو أمثل التوجيهات وأطيبها وأعظمها أثرا في نفوس المربَّين إذ فيه" فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي، وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي، ثم قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ،

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للنووي، (٥/ ٢٠).

إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»، لذا فاعلم يا رعاك الله أن هذا من أرفع معاني التربية والتعليم.

٢- لم يأخذه بغلطه حيث إنه -بأبي هو وأمي ﷺ- لم يقل له: لمَ فعلتَ هذا؟ ولا هددَّه، ولا عاتبه، ولا وبَّخه، ولا ضربه، ولا كهره، ولا سبَّه.

٣- توجيهه ﷺ وتصحيح أخطاء هذا الصحابي رضي الله عنه بأسلوبه الجميل بما يحل له في صلاته وما لا يحل له فيها.

٤- رفقه ولينه ﷺ حتى قال معاوية رضي الله عنه راوي الحديث: فما رأيت معلمًا قط، أرفق من رسول الله ﷺ، وهذا يدل على أن الرفق ينتج منه ثمار طيبة ومباركة دائمًا وأبدًا.

٥- كان هذا سمت نبينا محمد ﷺ وهديه ومنهجه وطريقته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وهو خير الناس، وأنصح الناس للناس، وهو أكمل الناس نصحًا، وأكملهم بيانًا، وأفصحهم لسانًا، وكان هذا شأنه مع أصحابه رضي الله عنهم يعلمهم ويرفق بهم، ويجدون ثمرة هذا الرفق، فيقولون ما يقولون مثل هذه المقالة التي قالها معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه : «فما رأيت معلمًا أرفق من رسول الله ﷺ».

٦- أن هذا الأسلوب التربوي أرقى الأساليب؛ إذ هو لا ينفِّر بل يجلب المحبة بين المربِّين والمربوبين.

٧- سعة صدر النبي ﷺ وتقبله للحوار الطويل الذي دار بين النبي ﷺ وبين

الصحابي ﷺ مما يدل على تواضع وصبر النبي ﷺ للمتعلم والمستفيد خلاف ما قد نجد من بعض العلماء من التضجر إذا سأله الطالب عدة أسئلة متتالية في وقت واحد.

الأنموذج الثالث: مراعاته ﷺ للجاهل بالوقت في رمضان

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «**إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ**»(١)، وفي رواية مسلم قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ وِسَادَتَكَ لَعَرِيضٌ، إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ**».

فلو تأملنا هذا الحديث نجد أن عدي بن حاتم ﷺ إنما أخذ العقالين وجعلهما تحت رأسه، وتأول الآية لكونه سبق إلى فهمه أن المراد بها هذا؛ فما زال يأكل ويشرب حتى طلوع الصباح، وذهب إلى النبي ﷺ وأخبره بما فعل وهذا عن فهمه هو ﷺ، وجواب النبي ﷺ له كان فيه لطف ورحمه حيث بيَّن له ﷺ المقصود من هذه الآية ومازحه في ذلك ولم يغلظ عليه بالقول، كما في رواية الإمام مسلم، وغيره بقوله ﷺ: «إِنَّ وِسَادَتَكَ لَعَرِيضٌ».

---

(١) أخرجه البخاري باب «قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ حديث رقم (١٩١٦) (٢/ ٥٦٩) ومسلم باب «بَيَانِ أَنَّ الدُّخُولَ فِي الصَّوْمِ يَحْصُلُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَأَنَّ لَهُ الْأَكْلَ وَغَيْرَهُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، وَبَيَانِ صِفَةِ الْفَجْرِ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ الْأَحْكَامُ مِنَ الدُّخُولِ فِي الصَّوْمِ، وَدُخُولِ وَقْتِ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ» حديث رقم (١٠٩٠) (٧٦٦/٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: مَعْنَاهُ إِنْ جَعَلْتَ تَحْتَ وِسَادَكَ الْخَيْطَيْنِ الَّذِينَ أَرَادَهُمَا اللهُ ﷻ وَهُمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَوِسَادُكَ يَعْلُوهُمَا وَيُغَطِّيهِمَا وَحِينَئِذٍ يَكُونُ عَرِيضًا.

ومن خلال هذا الموقف نأخذ بعض الفوائد والعبر:

١- حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على تَطْبِيقِ الأَوامِرِ الرَّبَّانيَّةِ، والمُبادَرَةِ للعَمَلِ بمَا يتَنَزَّلُ عَلى النَّبيِّ ﷺ مِنَ القُرآنِ.

وجَاءَ في بَعْضِ رِواياتِ الحَديثِ أنَّ عَدِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يا رَسُولَ الله، قَدْ حَفِظْتُ كلَّ شيءٍ أَوْصَيْتَنِي به غَيرَ الخيْطِ الأَبْيَضِ مِنَ الخيْطِ الأَسْوَدِ، إنِّي بِتُّ البَارِحَةَ مَعِي خَيْطَانِ أَنظُرُ إلى هَذَا مَرَّةً وإلى هَذَا مَرَّةً، فتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ وقَالَ: «**إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ**»، وبَلَغَ مِنْ حِرْصِ عَدِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعِنَايَتِهِ بِهَذَا الأَمْرِ أَنْ جَعَلَ العِقَالَينِ تَحْتَ وِسَادَتِهِ.

٢- عَدَمُ تَكَلُّفِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في السُّؤَالِ، إلا إذَا أَشْكَلَتْ عَلَيهِمُ المسَائِلُ الَّتي تَتَعَلَّقُ بعبَادَتِهم؛ ولذلِكَ اجْتَهَدُوا في فَهْمِ الآيَةِ القُرْآنِيةِ، فلما أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ ذَلكَ سَأَلُوا النَّبيَّ ﷺ وهَكذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ المُسلمُ مُمْتَثِلًا للنُّصُوصِ، غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ لِلسُّؤَالِ، وَيَسْأَلُ عَما أَشْكَلَ عَلَيهِ مما يَتَعلَّقُ بِالعَمَلِ الَّذي يُقرِّبُهُ إلى الله ﷻ.

٣- أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أَيْ: حَتَّى يَظهَرَ بَياضُ النَّهَارِ مِنْ سَوادِ اللَّيلِ، وهَذَا البَيَانُ يَحصُلُ بِطُلوعِ

الفَجْرِ الصَّادِقِ.

٤- أَنَّ المسَائِلَ المشْكِلَةَ، والأَلفَاظَ المُشْتَبِهَةَ، يُسْأَل عَنْها أَهْلُ العِلْمِ الرَّاسِخِون.

٥- أَنَّ غَايَةَ الأَكْلِ والشُّرْبِ طُلُوعُ الفَجْرِ، فَلَوْ طَلَعَ الفَجْرُ وَهُوَ يَأكُلُ ويَشْرَبُ فَنَزَعَ تَمَّ صَوْمُهُ، ولو اسْتَمَرَّ فسَدَ صَوْمُه.

الخاتمة وأهم النتائج

فقد أكرمني الله ﷻ، ووفَّقني لكتابة هذا البحث الذي عشتُ فيه أجمل لحظات عمري، أتأمل هذا الجبل الأشم، والطود العظيم نبينا محمدًا ﷺ، هذا الذي حارت لشمائله الأفكار، وأذعنت لأخلاقه النفوس، هذا الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤] متناولًا فيه صفةً من صفاته ﷺ، وهي: مراعاته للأحوال النفسية، وعليها كان هذا البحث بعنوان: «مراعاة الأحوال النفسية من الأحاديث النبوية» (دراسة موضوعية).

وبعد تجوالي حول مواقفه ﷺ من خلال بعض الأحاديث والآثار التي وردت في جانب مراعاته ﷺ للأحوال النفسية لمن خالطه، **أسجلُّ ما توصلت إليه من نتائج فأقول مستعينًا بالله ﷻ:**

أولًا: شرع الله ﷻ المتمثل في هدي نبينا محمد ﷺ صالحٌ لكل زمان ومكان.

ثانيًا: هناك تقصير واضح من قبل حاملي حديث النبي ﷺ في إبراز تعامله ﷺ، حيث إن السنة النبوية المطهرة فيها من الكنوز التي إن أُخرجت للناس أضاءت لهم حياتهم، وأراحت نفوسهم.

ثالثًا: على الدعاة إلى الله ﷻ القراءة الجادة في هدي إمام الدعاة محمد ﷺ والاقتداء به في قوله وفعله وهيأته.

رابعًا: على الدعاة إلى الله ﷻ إيصال دين الإسلام إلى الناس كافة وفق الأسس والمنهج الصحيح، وبما يتناسب مع أصناف المدعوين، ويلائم أحوال المخاطبين وظروفهم.

خامسًا: إظهار جانب من أخلاق النبي ﷺ، والاقتداء به ﷺ؛ إذ هو القدوة المتَّبع.

سادسًا: أن الكشف عن هذا الجانب من تعاملاته وأخلاقه ﷺ يضيء الطريق للدعاة إلى الله ﷻ ليكونوا على بصيرة في دعوتهم.

هذا والله تعالى أسأل أن يبارك في هذا العمل.

وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

وأن ينفع به الإسلام والمسلمين.

وأن يجعلنا من الهداة المهتدين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الشكر والتقدير ٣
تقريظ ٥
المقدمة ١٢
أهمية الموضوع ١٩
منهجي في الكتاب ٢٠
الفصل الأول: المراعاة، وحقيقة النفس..... ٢٤
المبحث الأول: المعاني اللغوية والاصطلاحية..... ٢٥
المبحث الثاني: الخلاف في النفس وبيان أنواعها..... ٣١
الفصل الثاني: القيم الحضارية في السنة النبوية..... ٣٧
المبحث الأول: كمال بشرية نفسه الشريفة ﷺ وتأثرها بما يفرحها ويغمها
..... ٣٨
المبحث الثاني: حرصه ﷺ على صيانة مشاعر أمته..... ٥٥
المطلب الأول: قيمة الكلمة، وأدب التخاطب ٥٥
المطلب الثاني: هيئة المخاطب وأثرها في نفسية المخاطب ٥٨
المطلب الثالث: توجيه النبي ﷺ أمته إلى كيفية التعامل مع الناس..... ٦٦
المطلب الرابع: ترغيبه ﷺ أمته في إدخال السرور على بعضهم..... ٧٦

المطلب الخامس: تحذيره ﷺ أمته من المساس بمشاعر بعضهم..... ٨١
الأنموذج الأول:..... ٨١
الأنموذج الثاني:..... ٨٥
المطلب السادس: إرشاده ﷺ أمته لحفظهم مشاعر أنفسهم ٩٣
المبحث الثالث: متابعة الصحابة ﷺ للنبي ﷺ في مراعاته للأحوال النفسية
..... ٩٥
الفصل الثالث: في مراعاته ﷺ لأحوال أمته النفسية على مختلف طبقاتهم... ١٠٤
توطئة ١٠٥
المبحث الأول: مراعاته ﷺ لعلية القوم وكبرائهم.....١٠٧
المبحث الثاني: مراعاته ﷺ لأبناء من مات آباؤهم على الكفر أو النفاق ١١٩
المبحث الثالث: مراعاته ﷺ للفقراء.....١٣٤
المبحث الرابع: مراعاته ﷺ لأحوال المسافر وظروفه.....١٤٠
المبحث الخامس: مراعاته ﷺ للأطفال.....١٤٦
المبحث السادس: مراعاته ﷺ لأحوال النساء.....١٥٤
التمهيد:.....١٥٥
المطلب الأول: مراعاته ﷺ للأم.....١٦٣
المطلب الثاني: مراعاته ﷺ للبنت.....١٦٨

المطلب الثالث: مراعاته ﷺ للأخت.....١٧٣
المطلب الرابع: مراعاته ﷺ للزوجات.....١٧٧
القسم الأول: مراعاته ﷺ لعموم الزوجات ١٧٧
القسم الثاني: مراعاته ﷺ للجارية الصغيرة.....١٨٤
القسم الثالث: مراعاته ﷺ للغيرى.....١٩٢
المبحث السابع: مراعاته ﷺ لمن في قلبه إيمان، ومن خوى منه ١٩٧
المبحث الثامن: مراعاته ﷺ لأصحاب الحالات الخاصة.....٢٠٢
المطلب الأول: مراعاته ﷺ لحاد الطبع.....٢٠٢
المطلب الثاني: مراعاته ﷺ للأعراب.....٢٠٥
المطلب الثالث: مراعاته ﷺ لمن يتقى فحشه.....٢٠٨
المطلب الرابع: مراعاته ﷺ لمن حلت به مصيبة.....٢١٤
المطلب الخامس: مراعاته ﷺ لمن يحب المدح.....٢١٦
المطلب السادس: مراعاته ﷺ لضعيف العقل.....٢١٨
المطلب السابع: مراعاته ﷺ لمن غلبت عليه شهوته.....٢٢٢
المبحث التاسع: مراعاته ﷺ للجاهل بأحكام الشرع.....٢٢٨
الأنموذج الأول: مراعاته ﷺ للجاهل بأحكام المساجد.....٢٢٨
الأنموذج الثاني: مراعاته ﷺ للجاهل بحكم الكلام في الصلاة.....٢٣٢

الأنموذج الثالث: مراعاته ﷺ للجاهل بالوقت في رمضان.....٢٣٦
الخاتمة وأهم النتائج.....٢٣٩
فهرس الموضوعات ٢٤١

تم بحمد الله

ملاحظات القارئ

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

ملاحظات القارئ

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....